الفصل التاسع

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

٥- الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة

٦١- ثورة يهود مدينة اليسانة[١]:

ولمَّا كُنْتُ فى تلك الفترة، بدَتَ أُمورٌ وأَسبابٌ دَلَّت على ما كان من الانتقال ومُقدماتٌ آذنَتْ بالزوال، فأوَّل ذلك نفاق أهل اليُسَّانة لعلَّةٍ نذكُرُها، وأَرَقٌ سببٍ لم يُوبَهُ له، وذلك أنِّى، لمَّا أمرتَ ببُنيان السُّور المتَّصل بالحمراء، ودبَّرتُه على تلك النصبة التى أضرَبتُ عن شرحِها لاشتهارها هيأت السعادة أن وَجَدَ البناءُون فى الأساس قُمْقُومًا مملوءًا ذهبًا أعلمونى به، فلما وقفت عليه، لقيتُ فيه ثلاثة آلاف مِثْقال جعفرية، فاستبشرتُ بها وتفاءَلْتُ بنجاح الطلبة، والدنيا تسخرُ بنا كما سخرت بمن كان قبلنا، فقلتُ: «من أساسِه يكون بُنيانُه!».

وكانت دارُ أبى الربيع اليهودىِّ الخازن للأموال فى دولة جُدى ـ رحمه الله ـ مبنيَّة على ذلك الأساس، فعلمنا أنه من ماله المدفون، فأتَى ابن المرَّة متنصِّحًا بالأمر، ويقول: «أرسلوا عن ابنه، يكشف لكم سائر دفائنه» فخاطَبْنا عنه ليِرِدَ علينا فى بعض الأمر، وكان صِهْرُه ابن ميمون، كنَّا قد قدَّمناه على يهود اليُسَّانة بوجه الأمانة، وأسْدَينا إليه جميلاً من التنويه به، فاستمال بها أقوامًا من الغرباء، يصول بهم على أهل مِلَّته، وكان خبيثًا، فأحَسَّ بالقصَّة، ووجست نفسه منها، واعتذر عن صهره، وساءَ لذلك ظنُّه، وخشى أن يُعذَّب على مال أبيه.

---

(١) اليُسانة: بلدة حصينة من أعمال مقاطعة غرناطة، تقع شمالى غربى مدينة لوشة على مقربة من نهر شنيل (الإحاطة ٣/ ٢٩٩ حاشية ٢).

ووَافقَ قَبْلَ ذلك، عـند انصرافنا من لِيِّيط، أن فَرَضْنا على أهل اليُسَّانة ذهبًا كثيرًا باسْم التَّقْوِيَـة لم تَجْرِ عادتُهم به، وحَمَلْناهم فى ذلك على الصحَّة والانطباع، فنَفَـرَت لذلك أنفُسُهم، ووجـد ابنُ مَيْمـون المذكور السـبيلَ إلى إغرائهم وحـملهم على النفاق، فـأجابوه، ودخلوا فى السلاح، ونادى فـيهم أن: «جِدُّوا، مَعْشَرَ بنى إسرائيل، فى حماية أمـوالكم!» وافتضح بذلك ابن مَيمون، وسَبَقَتْ له جنايةٌ فى قتل عاملِنا ابن أبى لَوْلا على المُسْتَخْلَص رياسة وعدوانًا، وامتَنَعَت اليُسَّانة بالجملة.

فلمّـا رأيتُ ذلـك، لم أجـد بدًا من مُـداراةِ الأمـر، واشــتـرَطَ مُـؤملٌ بإصلاحه، ونهض، ثُمَّ إنِّى عـملت رأيى بعْده، وعَلِمتُ أنّه لا يلقَى إلا أحَد وجْهَيْن: إما طاعة على غِش، أو عصيانًـا، وأيهما كان، فإرسالُ العسكر إليه واجبٌ، وشدَّةٌ وتَرْهيبٌ، ليـعلموا قَدْرَ ما جَنَوه، وخَـرَجْتُ بنفسى فى أثره، وقـد اجتـمع إلىَّ الأنداب، فـإذا بمؤمل قـد أقبـل منصرفًـا، ردنا عن ذلك المذهب، وقال لى: «قد أصلحتُ الأمـر مـع ابن مَيمْون، ونُهوضُـك إليـه لا يزيد القوم إلا نفـارًا، وربّما استعانـوا بعسكر ابن عَبَّاد، لا سـيما أنه الآن بقُرْطُبَة، وليست تُؤخَذ بإحصـار ولا قتال!» على أنّى قد علِمتُ أن ابن عـبَّاد لا يجيبهم فى ذلك الوقت كلِّه، ولا اشتهر بذلك إلا ما كان الناسُ يذكرونه، وابن ميمون يفتخر به ويُطمِع به أهل اليُسَّانة.

فقـبلتُ قولَ ابن مـؤَمل، وانصرفتُ على مـقربة من الحـضرة، وقلتُ: «خروجى إلى هُنا أو وصُولى إلـيهم سوَاء! إذا أردنا التَّهيـيب، فقد وَصَلْناهُ!» ثم قلتُ لمؤَمّل: «صِف علىَّ مـا انفصلت!» فقال: «إنَّ ابن مـيمون زَعيـمها

عَدَّدَ أشياء أنْكَرَها من الإرسالِ فى صهره، وهذه الفرضة العظيمة، وسائر ذلك من الألقاب اللازمة، فضمنتُ لهم الصكوك برفع ذلك عنهم، ولابن ميمون فى خاصتِه» وأمرتُ بَعقدها والإرسال بها، وقرت الجبالُ قرارها.

ووجَستْ نفسى من ابن مَيْمون لإظهاره الخلاف والإعلان بذلك، وعَلِمْتُ أنَّ هذه هُدْنَةٌ على دَخَنٍ، وأن لا طاعة تصحُّ لى معه، وسيؤثر أمثال هذه، فَدبَّتْ إلىَّ المُداخلة من اليهود المخمولين فى زمانه، ووعدتُهم بالإحسان، وتكرر فى الوساطة ابن سِيقى، حتى أبرمتُ من ذلك ما أمَّلتُه، وكان أخذ ابن ميمون يسيراً، لا عصبةَ له، وهو غافل، وكان الواسطة أيضًا ابن المرة مع أبى العباس الحكيم، وكان ذلك ممَّا نقمه مؤمَّلٌ لانحياشه عن ذلك، إلى أن وردوا الحضرة على عادَتِهم، وأمرتُ بثقافه مع ابنه برضاء من الشيوخ، وأمرتُ أن لا زعيم فيهم بعد اليوم إلا الكلُّ منهم أمناء مَنَّوْه بهم، فشكروا ورضوا، وخاطبتُ عامتَهم تُعلمهم بما لهم فى ذلك من الصلاح، وتهدَّنت الأحوال وقرَّت، إلى أن تلف الكلُّ.

٦٢- قضية زناتة:

وقَضيّة أخرى بَعْد هذه فى أمْر زناتة: إنه، لما أعملتُ الفكرة فى عاقبة الأمر فى هذه الفتن العارضة، رأيت أنَّ الاهتبال بالمعاقل من آكَدِ ما يجبُ النظرُ فيه، كالذى تقدَّم ذِكْرُه من المنظر فى عُدَدِها وما يُصْلِحُها، وأنَّ الأولَى استصلاحُ ما فسد من نفوسِ قوَّادِها، وذلك أنه لم يكن يَلى لنا مَعْقِلاً قَطُّ غيرُ صِنْهاجَة والوصفان والعَبِيد، ما خَلاَ زَنَاتَة: فإنَّهم كانوا أجناد الحضرة.

وكان الصِّنْفُ المذكور قد ضَعُفَ، واستولى عليه النقصانُ لمُطالباتِ

جَرتْ عليهم من قِبَل وزراء الدولة كاليهودىِّ وغيره، فإنهم كانوا يرون ألا ولاية تتهيأ لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إياهم وأنفسهم من تولية مثلهم، فكانوا يميلون إلى الصنف البرَّانىِّ كله، ولما جرى على اليهودىِّ ما جرى منهم، اعتقَدَها النايةُ فى نفسه، وخشى مثل ذلك، فجعل نفسه فى مطالبتهم، وتبديدهم، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة، ومن كان بيده شىءٌ، تُسُبِّب إليه وأزيل عن يده، فأدْركهم النقصانُ والقلةُ، وزاد فى زنَاتَة، وقويت أحوالُهم وإنزالاتُهم، على أنهم كانوا على الحقيقة خيرة جُند الأندلس، والموثوق بهم فى الشجاعة والنجدة، وكان الصنْفُ كثيراً، لا يعدم ضمَّهم مَنْ له مال.

فقلتُ فى نفسى: «هؤلاء القوَّاد الذين على الحصون، وإذا كانت أنفُسُهم فاسدةً، ولا يتذكَّرون معنا على نعمة طائلة، فكيف يُمسِكون المعاقل، أو بَاىِّ قلبٍ يجدُّون معى؟ وإنه لا عِوَضَ منهم فى الثِّقةِ للحصون وإن زنَاتة هؤلاء المُتَاصِّلين لا ثِقَةَ فيهم للمدينةِ الفُوَقى ولا للحصون، أكثر من خدمة الجُندية، لا يَعدَمُ منهم أحدٌ، فأنا جديرٌ أن أشركَ مَن ضَعفُ من صِنهاجَة بهؤلاء الأقوياء الذين أدْرَكَتْهم العناية ويُمسك واحدٌ منهم إنزال خمسة فُرْسانٍ وستَّة، ثمَّ من قنع بما بيده بَقىَ، ومن لم يُرِدْ، لم نعدَم منه العِوَض!» ففعلتُ ذلك، وأشركْتُهم، وكان فى هذا كلِّه تَحْرِيكٌ لِلشرِّ والقال:

إذا لم يكنْ عَوْنٌ من الله للفتى

فأكْثَرُ ما يجْنَى عليه اجتهادُهُ

فلمَّا رأى كبارُ زَنَاتة ذلك، قلقوا، وساءَت ظُنونُهم، فكُنتُ، متى دعوتُهم

إلى خِدْمةٍ نَجِـدُهم عنها عاجزين: من أشرِك ومن لم يُشْرِك، فـامتحنتُ على ذلك، فقيل لى: «إن كِبارَهم يفسدون صغارَهم! ولو أنك تخرج وغوغائهم[1] من البلدة، لصَلُح لك سائرُهم!».

فأمَرْتُ بإخـراج ثلاثة أنفس ممَّن يتهم منهم، وكان المـأمورَ بذلك لَبيبٌ الخصىُّ، صاحبُ المدينة ذلك الوقتَ، وثقناه لتربيتنا له، وكان فى المجلس أقوام يحسدُهم ويتهمُهم على نفسه أن ينقلوا طريـقتَه السيئة، فأصاب الفُرْصة للخراب، وأرسل من قِـبَلِه إلى أولئك المُخرجـين، وإلى من سِواهم من بنى عمِّهم، يـقول لهم: «إن الطلَّبَ قد وقَع فيكم من مَـجْلِس السلطان، وأُمِرْتُ بإخراجِكم، فلا توهنوا، واجـتهدوا فى التعصُّب عليـه وتَرْوِيعِه! وأنَا مَعكم! فإنه، إذا رأى جماعتَكم، رجع إلى قَـوْلِكم!» فلم يكن إلا بعد الأمر بساعة، وإذا بجماعـة الجند قد أقبلوا إلى باب المدينة يقولون: «إمَّـا أن يَرُد شِرْكَتَنا، وإمَّا فالكلُّ راحلون عنه، مُـنْتَقلون إلى غيره!» وأتى الفاسقُ لَبـيبٌ وأصحابُه الْمُتَّفقون معه، يقيم حُجَّتهم، ويُعضد قولَهم، ويخوِّف منهم، فمَيزت الأمْرَ، وعَلمتُ أن هذه جَعجَةٌ لا يُرجَع فيـها إلاَّ إلى رأى، فأظهرتُ الشِّدَّة، وقلتُ: «لستُ براجع عمّا أبرمْتُ، فـتكون نفوسُ الذين أشركتُ معـهم مُنْصرِفة إلى مثل نفوسهم! فمن شاء، فليمُرَّ، ومن شاء فليبق!» فلمَّا سمعوا بذلك، خرج الكلُّ.

ومـؤمل، فى هذا كله، على اتفـاق مع لبـيب، يدخل فى رءُوس الجند ويقولون لهم: «إنَّ هذا من قِـبَل غيرنا، ونَحن أبرياء!» ويرونهم الشـفقة من الأمر والطَّعن علىّ، وَصحَّ ذلك عندى مع طائفـةٍ من شيوخ العبيـد أصحاب

(١) فى المطبوع: «غَوْغَتهم».

مُؤَمَّل، وعملت حساب زناتة أنهم لا يزولون بالكل، وأن ذلك ترهيب، وأن الرجوع عمَّا أمرتُ به يضربهم إلى غير ذلك مما يُخلُّ بالرأى ويكون لهم الصولة والحماقة فى المعصية، وأن انقيادَهم للأمر واستعذارهم بعده أشبَهُ، وللحُجَّة عليهم أعزُّ وأبهى.

فلمَّا كان يومٌ آخرُ، خرجتُ بنفسى إلى عَرْضِهم كَىْ لا يُبَطِّن علىَّ من تقدَّم ذكرُهُ، فأمرت بالبريح عليهم وإحضار الزمام، لنعلم من صحَّ مُضيه وقعوده فوجدتُ الكلَّ مجتمعين، قد انصرفوا متقطعين ليلاً، لم يغبْ منهم أحد فوق الثلاثة الذين أمرت بإخراجهم، وجعلوا يعتذرون ويتنصلون، فقلتُ: «الله أكبر! هذا أشبَهُ وأليقُ بالمملكة!» ورأيت مؤملاً ولَبيبًا وغيرَهما قد عزَّت عليهم طاعتهم مُؤملين أن لو كانت طامَّة لا ترفع:

والعَين تبصر فى عينى مُحَدِّثها

إن كان من حِزبِها أو مِن أعاديهَا

٦٣- انقلاب مؤمل وثورته فى لوشة[١]:

ولمَّا قرَّ أمرُهم قرارَه، جاء مؤمل فى إثر ذلك يقول: «إن هذا الانطباعَ منهم ليس لرَغبةٍ فى البقاء معك! غير أنهمُ يُدَارونك حتى يحصلوا على فائد إنزالاتهم، ويتزوَّدُوا به! فلا فائد تُنْزِل عليه غيرَهم، ولا رجالٌ بقوا معك؟» وكنتُ إذ ذاك ناظرًا منه بعينِ الثقة؟ فعمل قوله فى نفسى، وقلتُ: «لا يَخلو هذا القولُ عن وجهَين: «إما قد اطَّلَع على ذلك منهم، فهى نصيحة، أو لم يطلعْ، فهو بغائلَته لا يَدَعهم، ويدخل هذا فى رءُوسهم، وتكون علىَّ فى

(١) لوشة: بالأندلس من أقاليم إلبيرة، وبها جبل فيه غار يصعد إليه (الروض المعطار).

ذلك الخسارة، وإن احتجتُ إلى العِوَض، لم يكن لى على ما نُنْزِلُه ولا فى بيت المال الكفاية لِمَا نحن بسبيله من النفقات على سائر الأمم!» فلم يأتنى من هذه الكلمَة نعاس، وأمرتُ بإخراج كلٍّ من فى رأسه حماقةٌ فبلغ عِدتُهم نحو المائة فارس، فخرجوا عن المدينة، وتصفّتْ، ولم يَبْقَ فيها إلا مَنْ ينطاع لكلِّ أمر.

وعَملَ فى نفسى فِعْلُ لَبِيب وشيوخِ العَبِيد، وصحَّ عندى منهم وَفِيهمْ أَنَّهُم عَوَّجُوا زَنَاتَةَ، وكانوا أشدَّ علىَّ من كلِّ أحَد، وجعل زَنَاتَةُ يَذكُرون ذلك، ويقولون وقتَ اعتذارهم: لا ذنب لنا! إنَّمَا نَحْنُ جُنْدٌ، ولولا ثِقاتُه وعَبِيدُه الذين حملونا على ذلك، لم نجترم عليه!» وجَعَلُوهم فى وقت قيامهم يمشون على الأسواق، ويأمرون الناس بالقيام، ويقولون لهم: «لم نَدْفَعْ نَحْنُ، إلا وهو يُريد إدخالَ النصارى!» فلم يلْتَفِت الناسُ إلى قولهم، إذ لم يروا ذلك من ثِقات الدولة وصِنْهاجة.

ولمَّا أُخْرِجَ زَنَاتَةُ، أمَرْتُ بعد ذلك بإخراج اثنَيْن من شيوخ العَبيد الذين صحَّ عندى إشعالُهم لهذه القضيَّة، وثَقَفْتُ لَبِيبًا، فوافَقَ إخراجُهُمْ ومؤَمَّلٌ خارجَ المدينة، فلحقوا به، وقالوا له: «قد أخْرَجَنا! وغدا بِكَ هكَذَا! فانظُرْ لنفسك!» فخَرَجَ معهم من فوْره ذلك، قاصِدًا إلى لَوْشة، مع مَن اتفق معه مِثْل ابن البَرَاء الكاتب وغَيْره.

وكانت هذه تِفْقَةً قَديمةً بَيْنهم مع بنى مالك عُمَّال لَوْشة، أنه، متى دهمهم أمرٌ، لَجَئُوا إليها، فنهضوا من فَوْرِهم ذلك قاصدين إلى لَوْشة، ولحقوا بها ليلاً، ودخل المدينةَ، ولم يمنعه أحَدٌ لمكانتِه مِنَّا، وحسب القائدُ

ومن فيها أنَّه رَسولٌ، فصار فى قَصَبَتِهَا، وجمع الجُنْدُ والرعيَّةَ، وصرخَ فيهم بالبُكاء، وافتعل الكذب، وقال لهم: «لم أخرُجْ من غرناطة إلا كما تَرَوْنَ: «بطَوْقى على عُنُقِى!» وتركتُ فيها النصارى قد استحوَذوا عليها، وكُشِفَ عنّى! فاثبتوا معى ونُوَجِّهُ إلى كلِّ سلطان: فمن أجابنا، اعتَضَدْنا به!» وخاطَبَ بذلك حُصُونَ الغَرْب، يأمُرُهم بالخلاف، وأرسلَ إلى زنَاتَةَ المُخْرَجين، ليكونوا معه مُضيِّقِين على غرناطة.

وإنَّ أهلَ الجِهَةِ مع أهل الحصون، لمَّا سمعوا ذلك دبَّرُوا رأيَهم وأرسل كلُّ حِصْنٍ من كبارهم إلى الحَضْرة مَنْ يَطَّلِعُ صُورةَ الأمر، فإن وَجَد خِلافَ قوله، لم يُخربوا وجوهَهم معنا، وإن ألفَوْه حقًّا، نظروا لأنفسهم، فأتونى أفواجًا مُعَزِّين ومُهنِّئِينَ على السلامة من النصارى، ومُسْتَفْهِمِينَ جليَّةَ الحال، فأخبرتُهم بالأمر على وَجْهِه، ولم يروا شيئًا مِمَّا ذكر مؤمَّلٌ، فطَابت أنفسُهم، وعلِموا أنَّه مُخالفٌ مُنافِقٌ، فبادَرَ الكلُّ إلى مُنازَلَتِهِ، وسألونى عَسْكَرَ الحضرة.

وكُنتُ، لما صَحَّ نفاقُهم بلَوْشة، قد أبْلَيْتُ لهم عُذْرًا، وأرسلتُ إليهم كُتُبًا ورُسُلاً تؤمِّنُهم ممَّا خافوا، وتُحَذِّرُهم قبيحَ العاقِبَة فى إيثار الفتنة، وأنِّى مُطلِقُ إليهم أهاليهم، ويخرُجُون عن الحصون حيث شَاءُوا بأمانٍ ووثائقَ، وهم فى هذا كلِّه، لا يزيدون إلاَّ طغيانًا وتهَدُّدًا، بانِين على الشرِّ، طالبين للثأر بلا ثأر، فلما يئستُ منهم، مع اتِّفاق الحصون عليهم، أرسلتُ بالعسكر، وقوَّدتُ عليهم يُوسُفَ بن حَجَّاج، سنذكُر وَجْهَ مُصاهَرته لنا بعد هذا، فنهض، فلم يكن إلا ساعة وصولِه، وجَزَعَ مَنْ معه فى القَصَبة،

وخَلَتْ عليهم، ودخلها العسكرُ، وأُسِرَ فيها هو وكلٌّ من معه، وأتانا من ذلك فَتْحٌ عظِيمٌ.

وأَمَرْنا بثقافها وسوقان الأسرَى، وثقفناهم مُسْتَفْتين فى أمرهم، فأفتت السُّنَّة أنَّ قَتْلَهم غير جائز إذ كان نفارُهم جَزْعًا، على أنَّهُمْ كانت لهم سَعَةٌ فى الأرض غَيْر لَوْشَة، وإنَّما أرادوا الفسادَ فى الأرض، وآخرونَ يقولون بقتلهم، فآثرت الأليق والأبعد من الآثام، وأنَّ ذلك لا يفوت، ومن أخلاق الكِرام التأنى والعَفْوُ عند المقدرة، فأوْجَبَت السياسة تثقيفَهم والشدَّة عليهم، لئلاَّ تكون طرقةً لغيرهم، وهو بابٌ فَتْحُهُ على الدولة من أَضَرِّ الأشياء، فلا غَفْلةَ لملك يَقْظَانَ فيه.

وخاطَبوا، مُدَّةَ كَوْنهم بلوشة، كلَّ رئيس بالأندلس، حتَّى صاحب مالَقة، فلم يُجِبْهم أحَدٌ، فلما يَئِسَ مُؤَمَّلٌ منهم، أرْسَلَ إلى أمير المسلمين، يُزَوِّرُ[1] عنده الأمر كله، ويكذب، ويقول له: «لم نؤتَ إلاَّ من إنكارى أمرَ النصارى، والقيام بدعوتك» حُجَّةً لا تقوم على ساق، وكان العَسْكَرُ إليها مُقْبِلاً مع نُعْمان، فانصرف لمَّا عُلِمَ بأَخْذِها.

٦٤- وصف الثائر نعمان وسيرته ضد عبد الله:

وكان نُعْمانُ المذكور ممن فَعَلْنا معه جميلاً، وأحسنَّا إليه لحرمة القرابة والانقطاع إلينا من المُرابطين، وزال عنَّا بعد إعماله الدواخل علينا فى حصوننا الغربية، وعَقْدِه مع أهلها أن يصيروا فى طاعة المُرابطين متى دُعُوا، وكان له بتلك الجهة إنزالٌ، فتمكَّن من القُرْب والعَمَل بذلك، وخرج عنَّا بَسراحٍ ادَّعَى من أجله أنَّ بالعِدْوَة ميراثًا ومالاً يُريد اقتضاءَه، فأبَحْنا له

(١) فى المطبوع: «يُزَوِّرُ» بالباء فى أوله، ولا وجه له.

النهـوضَ، وإذا به يَسْـعَى علينا، وقـال للأمـيـر: «نُفِيـتُ من البَلَد من أجْل نصيحتى لك ومَحَبَّتى فى دولتك!» أمْرٌ لم يكن منه حَرْفٌ، حتَّى إنَّ أطواقى، إن تكلمَتْ، لسَعَتْ علىَّ، لـلقَدَر الذى شاءَهُ الله، عسى لعـاقبةٍ محـمودةٍ إن شاء الله.

فعَملتْ هذه المعانى كلُّها فى نفس أمـير المسلمين، مع ما صُوِّرْتُ عنده بكثرة الأمـوال المكذوب عليها والمُنْتَـفَقةِ فى طاعتـه والجهاد معـه لو بَقِيَت الحال.

٦٥- مسألة زواج الأميرتين أختى عبد الله:

وإنَّا فى تلك الـفـتـرة، رأينا من الصـــلاح النظَرَ لمن مَـعَنـا من البَنَات وتَزْوِيجَهُنَّ قَبْل أن يفجأ أمْرٌ، فيَكُنَّ على غير عِصْمةٍ ولا كفيل، فتخيَّرنا لهُمَا من بنى عـمِّهمـا شاكلةً، منهم مَـعَدُّ بن يَعْلَى، للذى كـان عليه من النـجابة والعقل والمَحَبَّـة، فصَدَّنا عن ذلك أهْلُ دولتنا، وقالوا نصيـحة وحَسَدًا: «إن أنت تصاهَرْتَ إلى بنى عمِّك، حَمَلَتْهم دالَّةُ القرابة مع المُصاهرَة على الظهور عليك وفساد حالك بصلاحهم، فإيَّاك! وعليك بمَنْ هو دون قِيمَتك، فيُراعى إحسانَك، ويَرَى هذا منك كثيرًا، ويَرَى عياله بعَيْن مَوْلاة، وإن هو تحرَّك إلى شىء قعدَتْ به دقَّة شأنه، فلا أتبـاعٌ يهاودونه» فقبلنا ذلك حذرًا على الدولة، وقُلْنا: «من صَلُحَ من قرابتنا، نُدْرِك فعل الخير فيه دون مُصاهَرة تُطْغِيه!».

وكـان من بعض خَـدَمتنا مَـنْ حَضَّنا على يـوسف بن حَجَّـاج، لعِلْمـه بأخلاقه مدَّة صـحبته له، ووَصَفَه بصِفَات ظاهِرُها يشـبه المشاكلة، وذلك أنَّه قال: «فى الرجل انقـباضٌ واستِيـحاشٌ من الناس، وبذلك تأمَن من إجمـاعه

عليك، وفيه شُحٌّ كثيرٌ، لا يُخْرِج خَيْرَهُ من منزله، وفيه غيرةٌ شديدةٌ تُوَافِقُ مُعاشَرَةَ العيال، وبه حَرَج ونَزَقٌ، لا تَصِحُّ به ولاية، وهو من نقصان البيان وعيٌّ اللسان ما لا يطّبى بذلك الناس لتألُّب، إن شاءه عليك، ولا نقض لفعلك أو مَقالك والرجلُ من أوساط الناس ومِمَّن لا ينتمى إلى مَلِكٍ، ولا تُحدِّثه نفسُه بما لا أَصْلَ له فيه، فهو بين يديك كالكمأة التى إن شِئتَ قَلْعَتَها، لم تتعذَّر عليك من أصلِها، أو كالصَّمْغة، إن شئتَ فرَّغْتَها، ظَهَرت، وكانت لك المنَّة والخيار! والآخَرُ هو تَرْبِيَتُك ونشأتُك، وابنُ وزير جدِّك، وله من بُعْد الهِمَّة وكَرَمِ النفس وحُسْنِ السمت والوقار على حال الحداثة ما تُرْجَى« بَرَكَتُهُ، وليس بمُنْقِدٍ قدرُه، وإن أنهضتَه إلى أمْرٍ، جدَّ فيه، وأنت آمنٌ من سوء العاقبة، وإنما هو بمنزلة من أنهض ابْنَه إلى دَرَجة تُقِرُّ عَيْنَه، والأوْلَى أن يدعُوَك صِهْرُك «مَولاى» من أن يكون لك مِثْلاً، فتشقى أنت ونَحْنُ، إذ الغمدُ لا يحتمل سَيْفَيْن، ولا ندرى مَن السلطانُ فيكم، إلاَّ مَنْ ارتَضَيْتَهُ وقدمْتَه».

فعقدتُ لهما النكاحَ على أتمِّ ما يمكن، واستعددتُ فى سائر أمْرى بالأحْزَم، ووكَلْتُ ذلك إلى الأقدار، وقلتُ: «هذا جُهْدُ الاستطاعة، ودون جُهْدِك لا تُلام، ولله أن يقضى بما شاء!».

ولَمَّا صار وَلَدُ حَجَّاج بتلك المنزلة، شَرِهَتْ نفسُه إلى وزارة الدولة، مَقْطَع من لم يميِّز المذهب، ولم نكن بعد وزارة سِمَاجَة نستعمل لذلك أحَدًا، فكأنه وقع فى نفسه التقصيرُ به، جهالةً من الإنسان بقدره له مُهْلِكَة، وتَرْكِه صيانَةَ قدره له فاضِحة.

٦٦- حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله:

وكان أهلُ دولتنا على مَـذْهب جهالة فى هذه الأمـور: إنَّ كلَّ أحَدٍ منهم يُريد أن يعـمل برأيه، وأن تجرى الأمـورُ على هواه، فإن لم يتَّـفِقْ ذلك له، صار فى حـيِّز الأعداء، ولو كان علـى مرغوبـهم، ما اتفـق لرئيس عَمـلٌ، ولا تَمَّ له شىءٌ، وكانوا قَـبْلَ أيَّامنا قد شغلهم الخَوْفُ من صـولة رؤَسائـهم: ما كانوا يَرَوْنَ السلامةَ غَـنِيمـةً، ولـما تَـمَّ لهـم فى أيَّامـنا الأمـنُ، وأنسيتهُـم ما مضى، أدركَهم الأشَر والبَطَر، إلى أن تطمح أنفُسُهم لغير ذلك، وكُنَّا نَحْنُ نَظُنُّ أن بالأمن نسلم من اللائمة والعـداوة، وخانَنَا القياس، وكـذلك العاقِلُ المُتـمَرِّن لا يَجب له أن يظُنَّ بالناس ظَنَّه بنفسـه، ولا يعمل حسـابَه وَحده، فليس كلُّ الـنَّاس على مَـذْهَبك، ولا هواه مُطابِـقٌ لهـواك! ولا مـحـالة أن باختلاف الأهواء تَقَع العداوات، وباتِّفاقنا تكون المُصاحَبة وحُسْن المُعاشرة، وأصـدق الناس لك مَنْ يكابدُ مـعك، ودهاه مثْل الذى دهاك، وإن كـان من الأباعِد، فلا تستريح إلا إليه، ولا تشْكُ هَمكَ مع من لم يعْنِه ما عَنَاكَ: فإمَّا ساهٍ عن حَدِيثك، وقد أكْـثَرَت عليه، وإمَّا مُخَالِفٌ لمَذهبك، قـد استهدفتَ إلى عَدواته، وأحْدَثْتَ فى نفسه ما كنت غنيًا عنه.

هذا طبع البَشَرِيَّة: فلا تسمع ممَّن يُريكَ التحقيق بكلامه، فإنَّ الحقَّ ثقيلٌ على النفوس، والباطلَ إليـها أسرع، وعليها أخَفُّ، ولَمَّـا علم الشيطان حِيَلَ الإنسان، لمَـجْراه منه بمنزلة الدَّم[1]، أتاه من قِبَلِ هواه، ولا سـبيلَ أن تَلقى أحداً عَديمَ العَقْل: كلٌّ قد أخَذَ من التجربة حصَّتَه، وحاز اختياره، وعَرْضُك عليه ما يَبْدو إليْكَ عـجزٌ وكلفةٌ: فإن كان رَيِّضًا، فهـو بشأنه أبصر، ولعلَّ له

(١) فى المطبوع: «الذم» بالذال، ولا وجه له.

عذراً، وأنت تلوم، فتُولِد عليه انقباضًا منك وتَحَفُّظًا لئلا يُريك الخِلاف حتى يأتى بما اعتـزم عليه، وإن ألفيتَهُ جاهلاً، فـمن العناء رياضةُ الهَرِم، لم تَزِدْه أكثَرَ من نَقْله عن ودِّه، ولا يَنْتَقِل عن طَبْعه.

كَيْفَمَا رَوَّيْتُ فى الأمْر، أجِدُه جَهْلاً من فاعِله وكُلْفةً، إذ لا تأديبَ يجمل بالمُعَلِّم ولا المُـتَعَلِّم، اللَّهُمَّ إلاَّ من شُورِ فى أمْرٍ، فعليـه أن يعطى ما عنده من غير إلحاح، ولا يتمـرَّن فى انتظار طاعة، فيكون الناصح، إن سُمِعَ منه، تمادَى على صداقته وخُولِفَ فى غِشٍّ، فما قام خَيْرُكَ، يا رَمان، بِشَرِّك!.

لو أنِّى أعْلَم أنَّ بخـلاف يَسيرٍ عـلى القائل يُنْتَـقَل إلى حيِّز الـعداوة، لم أُشاوِرْهُ فى أمـر أبداً: وأكونُ قبْل مُشـاوَرَته مخاطِراً حَـذِراً الذى نَخشى منه، أشَدَّ علىَّ من عاقِبـة الأمر المعروض عليه، فالعاقِلُ يـقيسُ على هذه المعانى ويحرز بها صديقَه، فرُبَّ عداوة تتولد بأرَقِّ سَبَب، أو عداوةٍ تعود إلى مُوَدَّة، عند الحـاجة إلى التـعاوُن أو الانخـراط فى سلكٍ واحدٍ من عـارض يعمُّ أو مَرْغوبٍ يُرَامُ؟ تكون الحاجة فيه سَوَاءً.

ولا خَيْرَ فى عَـقْل لا يتصرف تارات، والمَذْهَبُ السَّـرْمَدىُّ راكِبٌ طريقةَ الجَهْل، واقِعٌ فى الورطات، ومن الحقِّ ما يسمج، فـلا تقوم حلاوتُه وفرضُه بما يعقب من المَشَقَّـة، والعاقِلُ يتخيَّر الأمور، فيتَـجَنَّب معسورَها، ويتَوَخَّى مَيْسُورَها.

٦٧- رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختى المؤلف:

وللقائل، إنْ يحْـتجَّ على هذا النِّكاح: ما الذى أُرِيدَ به؟ إن كُنَّا غـالبين، فقد استغنينا عنه، وإن كُنَّا مغلوبين، لم يَفـدْ ذلك! يعترض هذا بعد تِبْيان ما وقع!.

وإنَّما أردنا اكتساب الحَسَنَة مع السِّتر، وإنَّه، متى عرض عارضٌ، كان البعلُ مُكْتَفِيًا بامرأته، يُقَلِّعها إذا أحْوَجَ ما تكون فيه عند ذلك، وتكون لنا منهم عُدَّة، ويقِلُّ طمعُ كلٍّ من يَشْرَهُ إلى خِطْبَتهما، فقد كان كثيرٌ من سلاطين الأندلُس رَامَ ذلك، وتوقَّعنا العاقبة إن فَعَلنا: تنشَّبنا فيما لا مَرَدَّ فيه، ولا يُنفَكُّ عنه إلاَّ بالأموال الجسيمة التي هي أولى بالبَذْل في إقامة أود المملكة وما كُنَّا بسبيله من الجهاد، وإن أبَيْنا، وقع الخلافُ والحقدُ من الطالب، بحيث لا يوافق، على أنه لم نحسب حسابَ ما جَرَى، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ (الأعراف: ١٨٨) وكان زمانًا لم نحسب فيه حسابَ خَيْرٍ خرجَ منه مثقالُ ذرَّةٍ، ولا قِسْنا على شيء من الشرِّ إلا ولم نبلغ مِعْشَارَ ما يكون منه، بل يدهى منه أمَرُّهُ وأفْظَعُهُ.

ولقد قال المُطالِبون: إنَّ أمير المسلمين كان أحَقَّ بها، وإنما فَعَلْنا ذلك فرارًا منه، وهذا من المُحَال أن يكون أحَدٌ يتبعَّد الشَّرَفَ، ويُدْعَى إلى ما فيه حياتُهُ، فيأباه! ولو أنَّني أشعر بشيء من ذلك، ونَرَى أنَّ المَذْهَبَ في هذا، لكنْتُ أشدَّ الناس اغتباطًا بالأمر، وإليه مُسارَعةً، وعليه حرصًا.

ولم يكن مَنْ ألَحَّ في ذلك أكثر من المُعْتَصِم - رحمه الله - فبادَرْتُ إلى ما تقدَّم ذِكْرُه، خَوفًا من كلِّ ما ذكَرْناهُ، وإنه، لـمَّا تواتَرَت على أمير المسلمين هذه الأنباءُ، وصُوِّرَتْ عنده على غير ما هي، عَمِلَتْ في نفسه.

وانقطع رَجاءُ مؤمِّل بِلَوْشة من أن يجيبَه سلطانٌ من الأندلس، وعند ذلك، خاطَبَ أميرَ المسلمين، فلم يَصِل الخطاب، وهَيَّأ العسكر إليها مع نعمان، حتَّى انقضى خبَرُها، على ما وَصفْناهُ.

٦٨- تدخل عبد الله فى مسألة مرسية وغضب المعتمد:

واعتَقَدَ المُعتَمِدُ دُخولَ النصارى بَلَده ومُحاشاتَهم لِجهَاتى، مع ما كان فى نفسه من أمر مُرْسِيَة، فإنَّ ابن رَشِيق قال لى مشافَهةً، ونحنُ على لِيِّط: «أُريدُ أن أكون صَنِيعك وأدخُلَ فى جُملتك» وقال لى رَسُولُه بعد ثقافه: «لو أنك تقبل مَنْ تخلف فيها، لأقامَ الخُطْبَةَ باسمك، وكانت فى طَاعَتك! تَجِدُهُ ويجِدُك! فأَبَيْتُ هذا القول جُمْلةً، وقلتُ فى نفسى: «هذه نَصْبَةٌ لم يكَدْ أصحابُنا يتخلصون منها إلاَّ بَعْد المرام الشديد والكدِّ العظيم! رُدَّ منهم هذه المشقَّات! فلا يعترِضها هذا الوَقت إلا جَاهِلٌ بالزَّمان! وليت لو سَلِمْنا من هذا كلِّه! وإنه مَنْ أَمَّلَ أن يُبقى بَلَده، فقد شرِهَ إلى كثير، فكيف لفُضُول العَمَل الذى كنتُ أَرَى وأُمَيِّزُ؟.

ولمّا قامت علينا اليُسَّانَة، على ما قدَّمنا ذِكْرَه، كان ابن الأحْمَر يُداخلُها، ويَعِدُهم ويامُرُهم بالتثَبُّت، حتَّى تبدو إليهم الأحوال، ويَبْلُغُنى من ذلك ما يُقْلِقُ، فأردتُّ بعض المكافأة على ذلك، وأن نُوَجِّهَ إلى مُرْسِيَةَ مَن يعقد ما ابتدأنى به رَسولُهم ابنُ يكُّون، المُتصَرِّف فى خِدْمَتِهِم، ويقول لهم أن يُبَيِّنوا كيف يريدون مُحاولة هذا الأمر: إن أرادوا القيام بدعوتنا لمُلِمَّةٍ متى كانت، نغيثهم فيها بأموالنا ورجالنا، وما فائدةُ ذلك وثمرته فيما نَشْتَرِط نحن به؟.

ولمّا توجَّه مِن ثقاتنا لذلك مَنْ أنفَذْناهُ، اعتقَدَها المُعْتَمِدُ فى نفسه، على أنَّنا لم نكنْ نغرم على ذلك أبداً أكثر من طلب التَّعلاَّت عليه آخرَ ذلك بأن نسمع منه ما لا يوافق، فينتقض العمَل بسَبَبه، أو تُوقَف الحالُ إلى أمد مّا، كالذى يَقَعُ بين الملوك من المُداخلات والأعمال: فمنْها ما لا يتمُّ، أو يتمادَى إلى حين.

٦٩- إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسبتة من قِبَل عبد الله وإيقاع الخوف في نفسه بعد رجوعها:

وإنَّ أمير المسلمين، لما أتى سَبتَةَ، وهو قد أحشد وأعدَّ، قاصِدًا إلى جهتَنا، لا يريدُ غَيْرها، أرسَلْنا إليه رُسُلاً مقدَّمةً، بعد عِتاب كبير جرى بيننا وبَيْن المُعْتَمِد على خبر مرسِيَة، لم يَرِدْ به مفاسدة أكثر مما وصفناه.

وحانَ وصول أمير المسلمين إلى سبتة، وقدم رُسُلُنا عليه، وهم: ابنُ سَهْل القاضى، المتقدِّمُ ذِكره، المُسْتَعْمَلُ للعملة الموصوفة، وباديسُ بن وَارِوى من تَلكاتَة، يهنُّونه على سلامته ويتلَقَّوْن بالرَّحب قدومَه ومُسارَعَتَنا إلى ما يذهب إليه في جهادِه، وما أشبه ذلك.

فانصرف الرسولان المذكوران، يعلمانى أن أمير المسلمين قابِلٌ لكلِّ ما ذَكرْناه، قد أعْرَضَ عليهما من الجميل ولطيف القول ما لا شك في مَحَبته، فسرَّنا ذلك، وكان فيما قال لهم: «يصنع ما شاء! لستُ ممن يكلِّف أحدًا إلا طاقَتَهُ!» فكان ذلك منه دهاءً وحِذْقًا، مع ما نُبِّه عليه قَبْلُ، من قِبَل ابن سَهْل بالمُخاطبة وغَيْرِه، أن نفارَنا عنه إنما كان من خشونة الكُتْبة الواردة من عنده، وأن المُدارةَ بالقول أوْلَى، حتى يُظْهِر ما شاءَ ويمهِّد لعَمَله بذلك.

وإنَّ ابن سَهْل، لما رأى من خِلاف الجُنْد، واطلع عليه من أنفُس أهل البَلَد ما اطلع، قدَّم لنفسه، ورأى الا يُخلِّى من عَمَل يقَرِّبه فيمن تقرَّب، وأعلَمه أنَّ البلدة ليس عليه فيها مُختلف، ونفث ذلك باديسَ المذكورَ، وصحَّ عندى وقتَ انصرافها أنَّ ابنَ وَارِوى قال: «أرسَلْنا للخِدْمة له في زعمه، ولم نَصْنَعْ غير أنِّى كتَّفتُه، والقاضى ضرب عُنُقَه!» إلى أن وصل أمير المسلمين قُرْطُبَة.

الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

٦- استسلامه للسلطان المرابطي، سجنه ـ إخراجه من الأندلس ونفيه

٧٠- عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبدء مقاتلته إياه:

[وعند وصوله قُرْطُبة] اجتمع [أمير المسلمين] بالمُعْتَمِد، وسأله عمَّا لَهِجَ الناسُ به من مُداخلة الرومي، فشهد بذلك، للذي كان في نفسه من كلّ ما وصفناه، وأرسل أمير المسلمين إلينا كتابًا يقول فيه: «اقبَلْ إلينا، ولا تتأخَّر ساعةً واحِدةً!».

فرابَني ذلك، وهو موضعُ الانقِباض، لِمَا تقدَّم من الطلَب، وأنَّ بمَحْضَره جميعُ أعدائنا، وإلْحاحُهُ علينا في الوصول، واعتذرْتُ إليه بتَوْجِيه رُسُل: أحَدُهما ولَدُ حَجَّاج، والآخر ابنُ ما شاءَ الله، فساعةَ وصولِهما، قَرَّعَهُما بكلِّ ما نُقِل إليه، وأمر بثقافهما في الحديد على المقام، وقال لهما: «بالله! إنِّي غَزَوْتُه كما نَغْزو الفُونْشَ! والذي يقدر عليه، فَلْيَصْنَع!» وأتاني بعضُ الفُرْسان الناهِضين مع الرُّسل على أسوإ حالة، مضروبين ملهوفين، أطْلَقَهم قَرُورٌ ليُعْلِموني بالقِصّة، ويقول: «بالله! أنْ أطْلَقَهما الأميرُ حتَّى ينطلق مؤمَّلٌ وأصحابُه!» فدهمني من هذا الأمر ما لا مَرْفع فيه ولا حيلة، ولا ظَنَنْتُه أن يجري على هذه الرتبة.

وأرْسَلَ على المقام كُتُبًا إلى اليُسَّانة ـ فأوّل ما طاعَتْ له ـ وإلى جميع حصون الغَرْب، على يدي نُعْمان المذكور، الساعي في مُداخَلَتها قديمًا، وكان من كُتُبه إليهم: «أمّا بَعْدُ، فقد ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ

زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١) إن لم تُطَوِّعونا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (البقرة: ٢٧٩) وإنَّ خِطابَه لم يردْ على معقل منها إلاَّ وألقَى بيدِه، وقام أهلُه على إخراج قائدهم، حتَّى تناثَرَت المَعَاقِلُ كلُّها كانْتِثار العِقْد، إلى أن وصل الأمير إلى بَلِيُّش، ومن امتنَعَ منها، قاتَلَتْهُ الرعيَّةُ معهم، حتَّى يلقى بيده.

فلم نَدْرِ ما نصنع «واتَّسع الخَرْقُ على الراقِع» وقلتُ: «لا طاقة لى بجميع أهل البلاد، إذ غدروا وخرجوا عن الطاعة! فَبِمَنْ نُمَسِّك الحَضْرة؟ ليس فيها خلقٌ من غير جِنْسٍ ممَّن كان فى المَعَاقِل «ولا يتمكن للخِباء أن يَقِفَ دونَ أوتاد!» ولا فى الأمر من مُداراةٍ ولا حيلةٍ مع الرَّجُلِ أكْثَر من رَغْبته فى خَلْعنا! ولا ثَمَّ غَيْرُهُ يُسنَد إليه، فَنَسْتَرِيحَ فيه من هذه الداهية العُظْمَى والطامَّة الكبرَى! ولا فى المُمْكِن أن نَوَجِّهَ إلى الرومىِّ، فيكون ذلك فساداً فى الدين، واستعجالا للمكْرُوه؟ وإن شعر بذلك أهْلُ حَضْرَتِنا، كانوا أوَّلَ من يقاتِلُنا قبل المُرابطين! ما دام السترُ بَيْنَنا وبَيْنهم، فيكشفون لنا القِناع على بصيرة!» فما عَهِدْنا أيَّامًا ولياليَ كانت أفْجَعَ لقلوبنا، وأدْهَى لنفوسنا من تلك الأيام.

٧١- وصول الجيش المرابطى قبالة غرناطة:

وقدَّم أمير المسلمين عسكَرًا إلى غرناطة، ما دامَ مُحاوَلَتُهُ للحصون، يحرسونها من دخول عَسْكَر بَرَّانِى، إلى أن يَرِدَ عليها بنفسه، وأرسل القوَّادُ إلينا أن نُبيحَ لهم القُوت والعلف بالمدينة، فأجَبْناهم، لئلا يَقَع مِنَّا شىءٌ من الخِلاف، يتسبَّبُ به إلى ما هو أكْثَرُ.

وأرسلتُ آخَرين من الفُقَهاء إلى أمير المسلمين بمال، ويُعْلِمونه أنِّى ابْنُهُ،

وغيرُ مُخالفٍ عليه، والطاعةُ منّا له على مرغوبه، دون أن يحوج إلى هذا التعب كلِّه، فأرسل إلينا الفقيهَ ابنَ سَعْدُون، يقولُ لنا: «لا طاعة ولا صُلْحَ إلا بالخروج إليه! وهذا أمانه: كتابٌ بخطِّ يَدِه، يتضمَّن الأمان فى النفس والأهل دون المال» فأيْقَنْتُ بالغَرَض، وكان فى آخر كتابه لنا: «إن كنتَ استوحشتَ من النزول إلينا، فتَخَيَّرْ من بلادك مَوْضِعًا تصيرُ فيه، ولْتكُنْ غير غَرْنَاطة، لنَرى فيها رأيَنا! عُدَّةٌ فاترةٌ لا تَتِمُّ!».

فرويَّتُ هذا الأمر، وعَلِمْتُ أنّى بحال ومكان لا اختيارَ لى فيه، وأن المَذْهب فىَّ إلاَّ إلىَ مَعْقلاً، وأنه لا مَهرَبَ من بين يديه، فقُلتُ: «من السَّخْف يكون أن أقولَ: «قد اخترْتُ مَوضِعَ كذا!» فإن كان لها كارهًا، لم ألبَث أن أُردَّ منه بتعلُّل وحُجَّة للقوىِّ على الضعيف! وإن كان فى نفسه العِوَضُ، فَبِخُروجى إليه يُرْبَى ما يَعْتَقِدُهُ من إحسان، ولا حيلة غير الخروج والتَّرامى عليه، فإن كان قد أجمل وقبل، فَلَهُ الفَضْلُ، وعلىَّ الشكرُ آخرَ الدَّهر، وإن كان قد غدر، كُنَّا واثقين بالقَدَر، وأبْلَيْنا عند الله وعند الناس العذْرَ!».

٧٢- الحالة داخل حضرة غرناطة:

ولما التَفَتْنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحركاتهم، اطلَعْنا على أُمورٍ دليلةٍ على الانتقال، مؤذنة بالزوال، وقسَّمناهم أصنافًا على القياس والرتبة، مع المُعايَنة لما عَمِىَ قَبْلُ، وإظهارِ ما خَفِىَ، إذ لا حَرَج ولا هيبة ولا صَوْلة تتقَى، أمَّا الجُنْدُ من البَرْبر، فكانوا مُغْتبِطين بهم، طامعين فى الزِّيادة على أيديهم للجِنْسية، واتفق رأيُهم على ألا يلقوه بحَجَرٍ، وقدَّموا كُتُبَهم بالطاعة، وراجَعَهم عليها، يَعِدُهم بأن يُبْقيهم فى أماكِنِهم على أفضل ما كانوا عليه، فمن كان منهم بالمدينة الفوقىَ، تقلَّعَ إلى السُّفْلَى بأهله وماله، وبقى هو

بنسْمَتِـه مُنْفردًا متاهبًا للشـرِّ، إمَّا بالخروج إليه من الطاعـة، أو بإسلامنا إليه والتبرُّؤ منا.

ومن كان من التجار وأهل البلد، فكانوا على نيَّة أنهم مع مَنْ سَبَقَ، ولا طاقـةَ لهم بالحرب، ولا هُمْ أهلُـهُ، وأكثـرُهم خرج من البلدة يقـول: «لأىِّ وَجْه تحتمل الحِصار؟ تاجِرٌ هُنا وصانعٌ كما فى غَيْرِها!» وأمّا الرعيَّة، فبَخٍ بَخٍ ذلك ما كـانت تبغى، طمـعًا منها فى الحُـرِّية، وأنها لا يُلْزِمـها غيـر الزكاة والعُشْر.

وأمّا الرَّقَّاصة من المغَارِبة، الذين كـانوا عِماد الحضرة، وبهم كُنَّا نُمْسِك الحصون، فَـهمْ أول من طاع، وأعين مَنْ بالحضرة إليـهم يقولون: «ما الذى خـالفَ بنا عن صنيع بـنى عمِّـنا؟» فلم نَجِـدْ فى صِنْفٍ منهـا راحـةً يُرْجَى معونتُها!.

وأمّا العَبـيد والصقَالبـة، فالعبيـدُ الأعْلاجُ، أوّلُ من عصا، كـما ذَكرنا، بلَوْشـة، رَجَوْا أن يكونوا عـنده فى أعلَى مرتبـة، ولم يفكروا فى عـاقبـةِ أن يخطئـوا عنده، فيقـول: «ما نصـحوا مـولاهم رَبَّ الإحسان إليـهم! فكيف غيرُه؟» إلا أنَّ كل واحـد بشَهْوَته بين عينَيْـه، للذى شاءَه الله ـ لا راد لأمـرِه ولا مُعَقِّب لحكمه!.

حتَّى الـخَدَم من النسـاءِ والخِصيـان: كلٌّ طامعٌ فى إقـبال الدُّنيا عـليه، والخروجِ عن ثقاف القصر إلى راحة التسريح، والاستهتارِ بالرجال، وما أشبه ذلك، فجَـعْفـرٌ الخصىُّ منهم ولَبـيبٌ كانا زَعِـيمَى المُداخَلـة ورأسَ الفتك، يقولان: «نحن لا وَلَد لنا ولا تَلَـد! فعـلى أىِّ شـىء نـصبـر عـلى القتـال؟ وما عَسَى نطْمَع أن نَصِيرَ إليه: هل يجمل بنا سلطنة أو قيادةٌ أو قضاءٌ أو فِقهٌ؟

إنّما نحن بمنزلة العيال: من سَبَقَ استَمْتَعَ بنا، وكُنَّا عنده من جملة الفَيء، نَرْزُق كسائر الكَسْب، فلا نضيعَ! تعالوا بنا! نُقَدِّم لأنْفُسنا!» فوردت عليهم كُتُبُ أمير المسلمين بالإنزالات القويَّة، والمثاقيل، والمَراتب العالية، يَعِدهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامِهم لنا، حتى اتفقت من كلِّ جهة.

٧٣- لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم:

ولما اتَّسَقَ له ما أمَّلَ، وعَلِمَ بما معه في البلدة، بعد تَقْدِمة عَسكَرِه، كما ذَكَرنا، إلى فَحْص غَرْناطة، وكان أهلُ البلد يتقلَّعون من المدينة إلى البادية، ويخرجون منها أفواجًا، رأينا إمارة الشرِّ وعلامة السوءِ، فإذا بأمير المسلمين في أثَر ذلك العسكر مُقْبِلاً إلى الحضرة، فهاج الناسُ وجزعوا، واتَّفَقَ رأيي، مع مَنْ نصحني، أنّ الخروجَ إليه أَوْلَى، والتزامي عليه أنجأُ من هذه النار الموقَدة، فلعَلَّهُ، إذا رأى براءتنا مما نقله العدوُّ، ولم يَجِدْ في المدينة نصارى كما قيل، فلا بُدَّ له من وَجْهَيْن: إمَّا صَرْفُنا إلى أوْطانِنا، وإمَّا إخْراجُنا، فَلَنْ نعدم جميلاً، إذ لم نُهِجْ عليه حَرْبًا، ولا أتْعَبْناهُ في أمرٍ.

وكَمْ عَسَا العَيْشُ في هذه الدُّنْيا والنجاة بالنفس في دار الدُّنْيا وتخليصُها من الأوزار في الآخرة، لا يُبالِغ ذلك شيءٌ ولا يعدله! فاستَعْمَلْنا العَقْل الذي جعله الله أميرًا على كلِّ شيء، وكلُّ قُوَّة لا يتأنَّيها العَقْلُ ضُعْفٌ وسُكْرٌ، مع سوءِ العاقبة، ولا سيَّما أنّنا بحال لا بُدّ من إسخاط الرُّوم بإرْضاء المسلمين، أو إسخاط المسلمين بإرضاءِ الرُّوم! فالآن يَرِثُها المسلمون أوْلَى وأجْمَل للعاقبة، إذ هي نُشْبَةٌ لا مَلْجأ منها إلاَّ بما ذكرنا.

اللَّهُمَّ إنه لو امتَسَكْنا فيها بنفقة الأموال، ولا يمكن استِبْدادٌ دون انتظار قوَّةٍ من النصارى، ثُمَّ أتَى الرومىُّ، فينحاش عَسْكَرُ المسلمين إلى الجزيرة أو

إلى قُرطبة، مـرتقبًا لما يكون منه، فيـقول لى الرُّومىُّ: «قد أقلَعْتُ عنك من أرادَكَ هاتِ من الأموال ما نستَـحِقُّ من المكافأة!» فلو قلتُ له: «اترُك عَسْكرًا معى، وابقَ أنتَ لئلاّ يُعاوِدَنا!» ما كان يفعل، ويخشى على عسكره البوارَ بين أهل البلدة والعسكر الخارج، ولو انصرف دون أن يترك قـوة، فساعة انصرافه وإقبال المُـرابطين، لم تَرْتَـفِدْ لهم ساعةٌ، وينقطع الرجاء عن مـعونة أخرى: فهناك النكال الأكبر، وصَحَّ لهم قتلنا بالكتاب والسنة.

ولو أن عند إقـبال الرُّومىِّ، يقـول لنا: «إن كنت تـتقى من المـرابطـين، ولا يمكننا السكنى معك من أجلهم، فتخل لنا عنها، وتصير إلى كل ما تحبُّه مع النجاة بنفسك وحَشَمك وذخـائرك، كالذى صنعت بحفيد ابن ذى النون، إذ عاوَضتُه بلـنسيةَ، وإلا، فلا استيطان لك عندنا، إذ لا تفـيدنا بالبلدة، وما يغنى خروجك إلينا وتركك لمـدينتك مطيبةً للمُرابِطين، فـيدخل علينا الحزم منها» فلو أطعـنا، لارتكَبْنا من الأوزار والخروج عن الدين ما بـلغنا الله عليه والناس أجمعون، وكُنَّا نـترك غرناطة حَبْسًا للرُّوم، يُضرُّون منهـا المسلمين، فلا دماء تسفَك منها، ولا داخلة تُدخَل إلا وكانت فى صَحَائِفنا، ولا خيْر فى أثرة الدُّنيا على الآخرة!.

ولو أن يتـربَّص المُـرابِط عـند إقبـال الرُّومىِّ، ولا ينـحاش له، كـمـا وَصفْنا، ويبنى على لقـائه، فلو التَقَت الفئتان، فـلا بُدّ من أن يكون للطائفة الواحدة على الأُخـرَى، فلو أنها على الرُّومىِّ، ففـى إثر ذلك، لم يقدِّم على قَتْلنا شـيئًا بالحُـجة أننا أجْلَبْناه، ولو أن الرُّومىَّ يغلب، فنبـقى بعد ذلك فى المُلك ما شـاءَ الله، لم يطِبْ لنا مُلْك، ولاستحـينا من الله والناس أن يكون ذلك ببَوَارِ المسلمين وهلاكهم! ثمَّ إنه لا يصحُّ لنا ثبوتٌ معه، وأىُّ شىء كان

يحجره عنّا، ولا شيء نرتجى به نزع أنْفُسَنا منه، ولا بمن ننتصر لو هَمَّ بأَخْذِ الكلّ.

كَيْفَما رَوَّيتُ فى هذه الوجوه، لا خيْرَ فيها لمن تَعَقَّبَ الأمر وتَدَبَّرَهُ، إلا ما صَنَعْناه مع حكمه الأقدار التى لا تجرى على إهمال! فخَرَجْنا إلى الرَّجُل، كأنَّما نُساق إلى الموت، لا نَدْرى ما نَلْقى، إلا كالخاطِرِ بنفسه، متوَكّلين على القَدَر.

٧٤- تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله:

ولمّا لقيناهُ، سُرَّ بذلك، وأقسم لنا على الأمان فى أنْفُسنا وأهْلنا، ولَنَا منه المُراعاة والكرامة ما بَقِيَ، ثُمَّ أشار على قرُور بالترقيب علينا، إلى أن يُثَبِّتَ خيَرَنا، ويَقِفَ على أموالنا.

فانتدب [قَبْل ذلك] أهلُ دولتنا، يطلب كلٌّ واحِدٍ منهم أن نُودِعَ عنده شيئًا، فلم نَفعَلْ، وقلتُ فى نفسى: «هؤلاء يَطْلُبون ما يتزوَّدُونَ به، وليس ذلك شفقةً منهم عليَّ! وليس تُخْلِي من دفع ذلك إليهم من وَجْهَين: إمَّا فاسِقٌ يستأثر به دونى، فتكون حسرتُها فى نفسى، ولا نَقَيْتُ بها عن وجهى، وإمَّا مُتَبَشّل بِبُعضِهِ، يحمله إلى الأمير ليتَهَنّى به ما يبقى له، وعند ذلك نَفْتَضِح عنده، ولا يقبل لى صَرْفًا ولا عَدْلا، وربَّما يحنق عليَّ، فيؤذِّينى بعد الأمان، مع حبِّهم فى المال، وإنه لا شيءَ نرجو به بعد الله التَقَرُّبَ إليهم إلا بالأموال، ولو أمكننى أن أزيدَ فيها، فتملأ أعْيُنَهم! وأنا لا أبتغى إلا العيش لخاصَّة نفسى وأهْلى، وقد خَفّفَ الله عنِّى بقِلة العيال، ولا خير فى الغَرَر بمال لا أدرى إن بَقِيَ معى، مع اختلاطِه وكثرةِ شُبُّهاتِه، وكثرة المال إنَّما

يحتاج للمَمْلكة والأجناد، فالآن قد أزاح الله ذلك عنى، ولم يَبْقَ إلا طَلَبُ السلامة بحُشاشة النفس، وهى غنيمةٌ فى مِثْل هذا الوقت الحادّ!.

فخَرَجْتُ إلى الرَّجُل بعد ثقاف القَصْر، ولا خَوْفَ عليه ذلك الوَقْتَ، إذ كان الناسُ بَيْن يأس وطمع فى الرجوع، فلا جرأة من أحد فى اعتراض شىء من ساقَتِنا، ولمَّا أُنْزِلتُ بتولِّى قَرُور للأمر، جعل الحرَص على الخِباء، وأمر بطَرْد الداخل والخارج، وحِيلَ بَيْننا وبين عبيدنا وصنائعنا: كلٌّ يفتِّش عليه ويُبْحَث على ما لَدَيْه من مال كسبه فى ولايَتِنا.

ثُمَّ أتانا الفقيهُ ابنُ سَعْدُون من عند أمير المسلمين، يقول: «أحضِر الأموال والأزِمَّة بها! فإن مُؤملاً قد أخبره أنه ليس عندهم درهم إلا بزمام وذِكْر» فقلتُ له: «نَعَم! كان ذلك، قد تَرَكْتُه فى دارى، فإن أباح لى المسيرَ بنفسى لاستخراج الكُلِّ، وإلا، فهذه أُمِّى، تتولَّى ذلك مع ثِقاته حتى لا يغادِركم منه خيط!».

وكان، عند خروجى، قد وقع فى نفسى من خوف الثقاف ما خشيتُ الفرقةَ منها إن تَرَكْتُها فى القَصْر، فخرجتُ معها، ولم ألتفت إلى ما سِوَاها، وأنا مع ذلك فى حيرة لا أدرى لما يصير أمرى، قد أُشرب قلبى من الخوف والجزع ما لم أعْهَدْهُ قطُّ، ولا كان فيه عزاء، فإن الأمور التى ينبغى لها الاستثباتُ والصبرُ ما كان من أمر دون أمر، وإن جلَّ خَطْبٌ، يُرْجى فى غيره الراحة، وبعض الشرِّ أهوَنُ من بعض، وإنَّما هذه النصبة لم يكن لها عزاء ولا استراحة إلى أمَل ورجاء ليُسْر، إلا بحيث يُحتَسَب، فأذْهَلَنى ذلك عن كلِّ ما لى فيه صلاحٌ من تَقْدِمَة النَّظَر فى مال أو غيره، بل، كانت نفسى آكَدَ

علىَّ، لم تعمل حساب مَنْ يعيش، لا سيَّما من لم تَجْر عليه قبل ذلك محنة، ولا أكربه الدهر برزيَّة، فجاءت جُمْلةً، أبْهَتْ وخانت القياس، وحادَتْ عن سبيل المعهود.

وقد كان أرسل إلىَّ قَرُور يطلُب خطَّ يدى بإسلام المدينة وإخراج من لى فيها من الحَشَم، فبادرْتُ على المقام، إذ الالتواءُ عن ذلك ممَّا لا ينفع، ولو فعلتُ، لكان ذلك زيادة فى الهوان، ولم يَفِدْ شيئًا، وأنا قد حَصَلْتُ فى القبضة.

وكنتُ أخرَجْتُ مع نفسى أسبابًا منها سَفْطُ ذَهَبٍ فيه عشرة عُقود من أنفس الجَوْهَر، وذَهَبًا مَبْلَغهُ ستَّة عشر ألف دينار مُرابِطيّة، وخَوَاتِمَ، وتأوَّلْتُ فى إخراجها معنى أن قُلْتُ: «إن كان الأمر يبدو من الأمير بثقاف، فهذه حاصِلةٌ لا تنفع، تُجْعَلْ كَسوَاها، وإن لم يكن، وربَّما تأخَّرَ فى الأمر بعد قضاء غزوته، داريْتُ منها وأعْدَدْتُها لِمَا ينوب على العَسْكَر ومُتاحفة المُرابِطين».

ولم يُترك لنا خادمٌ إلا حِيلَ بيننا وبَينها، وفُتِّش عليهم ألا تكُنْ فى أوْسَاطِهم خبيئةٌ، وجعل قَرُور يقول لى ولأُمِّى: «اكشفا لى عن ثيابكما، فقد أُخْبِرَ السلطانُ أن خيرةَ الجَوْهَر على أوْسَاطِكُما» فتَبرأنا له عن ذلك، ونزعتُ له عن الثياب، ثم جعل ينفض المخدات عن الصوف، ويفتش بينها، ويُقَلِّب التوابيت على وجوهها، ويحلُّ طى الثياب فَتْشًا لم يُعْهَد مِثْلُه قطُّ، ثم أمر بحفر الأرض التى عليها الخِباء، خَوْفًا من أن ندفن فيه شيئًا، وهو فى ذلك كلِّه يقول لى: «إن سلمتَ بروحك، فما فى الأرض أوْجَه منك».

وصار الكلُّ فيئًا من خادمٍ وغُلامٍ، ما خَلاَنى وأُمِّى، وكنت وقت خروجى قد أخرَجْتُ مع أُمِّى صَبِيَّةً طمعتُ أن أنجو بها، فلا يُوبَه لها، ألاَّ أنفرِدَ دون أحد من أهلى، لتكونَ لى عُـدَّةً لما بَعْد ذلك، فأتى قَرُور، وألقى يَدَه فيها، وأخرَجَها، وفَتش ثيابَها على المقام، وتحمَّلها، ثمَّ أتى إلى أثاث الخِباء كلِّه وفتَّشَه ظاهرًا وباطنًا، فكلُّ ثوب أو حاجةٍ استَحْسَنها، أخَذها لنفسه، وكاد أن يُعَرِّينى من الكلِّ، وأصاب الدنانير المذكورة، فقال لى: «ما أردتَّ بإخراجها؟» قلتُ: «لأُتاحِفَ بها الأمير!» فهدَّدنى وأدخلنى تحت وَعِيد، ثم أمر بانتقالها عن المقام، وأخذ السَّفَطَ بما فيه من الجَوْهَر وَالخواتم: هو من جِهةٍ، ورَبِيبُهُ من أُخْرَى، وأنا فى هذا كلِّه لا أرجو شيئًا إلاَّ السلامة فى الروح، ولم نَشُكّ إلا أنه لا يكون بعد هذا إلا القتل.

ثمَّ إنه أمر والِدَتى بالطلوع إلى القَصْر لاستخراج الأموال، فتكدَّرْتُ لذلك أيَّامًا، ما منها يَوْم إلاَّ ونظُنُّ أنها لا ترجع إلىَّ، حتى دَفَعَتْ إليهم الكُلَّ بالأزِمَّة، لم يُغادِرْهم من ذلك قليلٌ ولا كثيرٌ، حتى أن الحاجة اليسيرة رُبَّما كانت عندى فى الخِباء، فيُشَدِّدُ فيها على الوالدة، فتأتى عنها وتحملها إليهم.

ولم يَتَبَيَّنْ لى خِلاَفُ أهل بَلَدى، إلاَّ والأمْرُ قد فات، من النظَر فى الزمامِ أو غَيْرِه، ولم يتقدَّمْنى أحَدٌ إلى مِثْل هذا، فنأخُذَ حِذْرى ونتأهبَ له، ولم يكن إلا ما شاء اللهُ، إذا أعطى، فلا مانِع، كما أنه لا يتهيَّأ، مع ما سُلِبَ وضاعَ، ثُبُوتٌ ولا بَقاءٌ، ولو رُفِعَ إلى أعنان السماء.

فلمَّا تَقَصَّوْا الجميعَ، وتبين الحقُّ، جاءَنى قَرُور بوصية السلطان، مع أبى بكر بن مُسكَّن، وهو فى ذلك على مُنْتَقِمٌ شانئ، وهو يقول لى: «الأميرُ

يُنْهِى إليك أن لا يَبْقى لك عند أحد وَديعةٌ، وإنَّ مـا فى قَصْرِك قد تنزَّلْتَ عنه بالأزِمّـة، وما فى خـبائك قـد صار إلينا وفـتشْنَاهُ، وبَقِىَ لنا أن ندرى مـالَكَ مودُوعًـا، وإذًا، لا عَـهْـد بَيْننا وبَيْـنك، إن خُـرِّج قِـبَـلك دِرْهَمٌ عنـد أحـد، ولا تكون عقـبَاك فى ذلك إلا أن يجعلك فى الصَّحْـراء بحيث لا تربح ذلك المـال، ويبقى عند من أَوْدَعـتهُ» فـرجعت إلى نفـسى أن نعلم لها عنـد أحد درهمًا وديعة، فلم أجِد، وأقسمت له على حق.

ورجعتُ إلى الوالدة، أعظُها، وأقول لهـا: «أسألُك بالله! ألاَّ ما أشْفَقْتِ علىّ؟ فربُما قد أخـرجْتُنَّ شيئًا لا أعْلَمهُ، فيظهـر بعدى، ويكون فيه هلاكى، وهلاكك والدُّنْيـا أقلُّ من هذا كلِّه! والقومُ، كـما تَرَيْنَ، متـعلَّقون بشـعرةٍ، يطلقـون معنا أرَق سَـبَبٍ! فإياك أن تشـمتى بى! وإذا تبـرأنا له، لا يمكن له تَضْيـيعُنا، وليس يُـدَّخَرُ المال إلاَّ لثـلاث: سلطان يجور، أو فِـتْنةٌ تدوم، أو عُمْرٌ يطول، ونحن فى نفرٍ يسير!».

فلما سَمِعَتْ ذلك، بكَت وقالت: «نخشى أن نبقى فُقَراءَ! والموتُ أهْوَنُ من الفَـقْر!» فـسَهَّلْتُ عليـها الأمـر، وَقالت: «إن الله لا يُضـيع مَنْ خلَقَ!» فكتبت تسـميةً بمـا أوْدَعَتْ من مَتاعِـها، تلك الليلةَ التى حـان خروجى فى غَدِها: ذَكَـرَتْ أن لها عند لَذَّة خادمِ ابـن أبى خَيْثَـمَة كاتبنا سُـبَيْبـات لبعض جواريها، ولها عند ابن الزَّيْتُونىِّ القَرَوىِّ أربعة آلاف مِثْقال، وحَلْيًا أرْسَلَتْ فيه على المقام: نحو خمسة عشر عِقْدًا، فأما الحلى، فأتاها وأعطته لقرور، ولم تؤخِّر به ساعة، وأما الذهب، فإنها، لما جلبَتْه من ابن الزيتونىِّ، بادَرَ به إلى السلطان وتحمله لنفسه وكذلك فَعَلَتْ خـادمُ ابن أبى خيْثَمَة، وأتت إلى قَرُور

بتلك الأسباب، فوقع إلينا الخبرُ، وزادنا ذلك همًا أن بدروا به للشرط الذى اشترط علينا، فأخذتُ على المقام تلك التَّسْمِيَةَ، وأرسلتُها إلى قَرُور، قبل أن يبدأ بنا، فقال: «قد أخرجوه لنا، فإياكم أن يبقى لكم شيء عند غيرهم!» فاستَفهمتُ والدَتى ثانيةً، وبَكيتُ لها، فقالت: «ما لى شيء عند أحد أكثر!» فأخذنا المَصاحِفَ، وحلَفْنا فيها لقَرُور أنه ما لنا شيء أكْثَرُ، لا مُوْدَعٌ ولا مَرْفُوعٌ» فأعلم السلطانَ بما أقسَمْنا به، وجعل مع هذا يبحث ويَستَقصَى، فما وَجَد لنا أكثَرَ كما قالت الوالِدة.

ولمّا لم يجد شيئًا، أتانا قَرُور ثانية، وقال: «إنه قد ظهر أنه لا وديعة لكم أكثرَ، ولكن إياك أن يكون لكم مالٌ مدفونٌ!» فقُلْتُ: «ما عَلِمْنا قطُّ بدَفْنٍ، ولا حسبنا هذا الحساب، ولا كان الدَّفْنُ شأننا! وغَيْرُ مُتَعذّرٍ على الأمير أن يحفر القصر كله، حتَّى يَرَى!» فقال لى: «إياك بالمُنكَّب!» فقلت: «ما لى بالمُنكب إلا شيء من الأثاث عَدَّدْتُه لنزولى فيها: جميع ذلك بزمام بخطِّ يدى، يُرْسِل فيه الأمير ويأخذُ به!» فقال لى: «هات خطَّ يَدَك بإخلاء المُنكَّب!» فبادرتُ على المقام، وأصاب الزِّمام بالمُنكب على الصِّفة التى وَصَفْتُ وكان الجُنْدُ بها قد تَرَبَّصُوا، وقامت الرعيَّة، فطلب خطَّ يدى بالإخلاء.

ولمّا صحَّ عنده براءتُنا من جميع الأشياء أتانا قَرُور لتحصيل ما بقى، والعَجَبُ منه فى تلك المُدة أنه أتانى بسفر كبير، وقال لى: «اقرأه! فإن فيه جميع الأعلام التى رأى الناسُ لنا بِمُلْك الأندلُس، وفيه عباراتُها!» ولا أدرى ما أقرأ [ولا أسمع] أكثر من قوله لى بهذا اللفظ: «ليس كذا هو؟ فجبيتَ

الأموال، لا [بقى لك] منها شيء!» ولما وقف على جميع ما فى الخباء من وطاء وثياب، رفع بذلك كتابًا إلى الأمير، وأعاد الفَتْشَ، يَجِدْ غَيْر ما رآه أولا.

٧٥- نفى الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فلمَّا خُبِر بما فى التسمية أنه لا غِنًى للإنسان عنه، سَوَّغَهُ لنا مع ثلاثمائة دينارٍ وثلاث خَدَم، أمرَ لنا بها، وأعارَنا دَوَابَّ خمسةً لنقلان الأثاث كلِّه، وأمَرَنا بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء، وقال: «تَنْتَظروا بها السلطانَ حتى يَرِدَ عليكم» وأعطانا من المُرابِطين مُشَيِّعين مَنْ يُؤنِسُنا ويتكَفَّل أُمورَنا، فشكرنا له ذلك، وتحرَّكْنا على المقام، إذ كان الحفزُ منه فى ذلك شديداً.

وكُنَّا طولَ طريقنا جازعين، لا ندرى ما يذهب إليه بنا، ولا ما الإشارة فينا، وقد كنتُ أرى المُرابِطين ينزلون بَمَنْزِلٍ، أو يَحتَلُّون فى موضعٍ، فأقول: «إن ذلك لشيء أُمِرُوا به!» فكنتُ طريقى ذلك تحت جزعٍ وهلعٍ، أَسْأَلُ الله أن يُكفِّرَ بها السيئَات، ويجعلَها آخرَ مصايبنا بعزَّته، إلى أن وَصَلْنا الجزيرة.

فأُرْسِلْنا إلى سَبْتة، ودَخَلْنا البَحْرَ فى يومٍ عاصفٍ، أَدْرَكَتْنا فيه أهوالٌ لم نَكَدْ نسلم منها إلاَّ بالأجَل الذى لم يحضر، حتى خَرَجْنا إلى سَبْتة، بعد أن قيل لنا: «فيها تنتظروا الأمير!» كما قيل عن الجزيرة، فزادَنا ذلك قَلَقًا.

ثُمَّ نُقِلْنا إلى مِكْناسة الزَّيْتُون[1]، وتَلَقَّانا الأميرُ سِيرُ، وأنَّسَنا، وأخْبَرَنا أن مُقامَنا عنده إلى أن يَرِدَ السلطانُ من الأندلُس، وأرْسَلَ إلينا مائةَ دينار، وعند

(١) مكناسة الزيتون: مدينة فى المغرب من نظر فارس إلى جهة المغرب، وهى أربع مدن وقرى كثيرة متصلة بالمدن والحصون، الممدَّن منها يسمى تاجرارات، وتفسيره المحلة، وعلى هذه المدينة سور كبير وأبراج عظيمة، وهى مدينة جليلة فيها الأسواق الحفيلة (الروض المعطار).

حُلولِنا بهـا، أيقَنَّا بالمُقام فـيها، وبقـيْنا على تلك الحال، قـد فُقد مـا كان بأيدينا، وأحوَجْنا إلى بيع ثيابنا التى تُرِكتْ بنا بعد أن استَـحْوذ قَرورٌ وحاشِيَتُه على أكثرها (فكلُّ يَد وما انْهبَت!) لم يتركوا لنا إلاَّ ما لا نَظَرَ له على نزارة ما أبْقىَ، والسلطانُ ـ أيَّدَهُ الله! ـ غافِلٌ عن ذلك، لم يكن الشكوى إليه، إذ كان قَرورٌ واسطةً، وما كنت أتشقَّى من ذلك أكْثَرَ.

ومن أعْجَب الأشيـاء أنَّه، عند حلولى بمكناسة [كـتب إلىَّ] يقـول لى: «أخبِرنى عن الخـاتم الذى خَرَجْتَ به!» [وقـد كنتُ] أخْرَجْتُـه من إصبعى وبِعْتُهُ بعشـرة دنانير، فراجَعْتُه نعلمه بحاجـتى إلى ثَمَنه، وإنَّما أراد أخْذَه لئلا يُبْقى لنا شيئًا، ويتقصَّى الجميع، وعَلِمَ أنَّه لم يَبْقَ لى غَيْرُه.

ثمَّ إنَّه وافـانى من عند السلطان ثلاثمـائة دينار أُخـرَى، وأنا بِمكْنَاسَـة، وخاطَـبَنى بكتاب يَعِـدُنى بكلِّ جمـيل، ويقول لى: «لا أنْسَـاكَ ما بقـيتُ!» فسرَّنى ذلك ـ أحْسَنَ الله جَزاءَهُ! ـ فلقد كان أرْفَقَ بى بَعْدَ الله! من كلِّ أحَد، وأعْلَمَنى أنَّه، إذا وَرَدَ مَرَّوكُش، أكونُ معه حـيثُ ما كان، إكرامًا لنا وإيثارًا، فعَلِمْتُ أنِّى منتقلٌ عن مِكْناسة، إلاَّ أن الروعَ كـان أفْتَرَ، إذ لم يكن أن تُؤَخَّرَ العقوبة إلى ذلك الأمـد، وقَرُورٌ، مع هذا، لا يَدَعُ طَلَبى عند السلطان، على إحسانى إليه، جِبِلَّةً قد جبله الله على بُغـضى، مع قلَّةِ رحمتِه، وقساوةِ قلبِه، ودناته ولَوْمِه.

٧٦- عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله نفيه:

وبَلَغَنا فى طريقنا ذلك ما كان من ثقاف أخينا تميم بعدنا، وأنَّه، لمَّا كان فى مدَّة كوننا بغـرناطة لإخراج الأموال، ونحن على تلك الحال مُـرقَّبين فى

الخباء، كان تميم المـذكور يزورنا، ويتكدر علينا للذى يلزم من حُبِّ القرابة وصلة الرَّحِم، وكان قَـرُورٌ، فى هذا كلِّه، يرمقـه ببَصَره، ويعـتقد فى نفـسه لذلك شَرًا، وصـوَّر عند السلطان أن مـالا أخرجناهُ مِنَ المـالِ مَوْدُوعٌ عنده، ليسلم لـنا بسَلامَتِـهِ، مع ما زِيدَ فيـه من الطَّلب، أن قيلَ للسلـطان: «ثقفتَ صاحِبَ غـرناطة، وأخوهُ منه! وإن تركْـتَه ينصرف إلى بلده، طـلَبَك بالثار، وأفْـسَدَ عليك مـا ترجو صـلاحه، مـع شرَّته وحـدَّته! فهـو بذلك مَرْسُـومٌ مَعروف! فعاجل بثقافه، يصفى لك ما تؤمِّل!».

وكان قـبل ذلك، على مـا أعلمنى أخى المذكـور، قد أنَّسَـهُ السلطان، ووَعَـدَهُ بصَـرْف بلاده إليـه التى صـارت إلىَّ، وقـال له: «لَسْتَ من أخـيك [بالمسئُول، وأنتَ أظهرتُ لى] الطاعة، وأجملتَ المُعاشَرة، وإنَّك أوَّلُ مَنْ ضـرَبَ الدَّرَاهم [المُرابِـطيَّة] والآن تستحمد عـاقِبةَ رأيك، ونجعل لك بتلك المَـزِيّة على أقرانك!» فطمع الـصبىُّ بذلك، وشـرِهَ إليه: كلُّ ذلك خِـذلانٌ [اغتـرَّ به] ملوك الأندلُس، وأسعد من أجْله المُرابِطون، فـعميَت البصائر، وقويَت الشهوات، وامتدَّت الآمال بَحَيثُ يَنبَغى لها أن تقصر.

فلمَّا هَمَّ به، أُخِذَ فُـجاءةً لئلا يشعر، فيغـيب المال الذى اتُّهِمَ به، ويَفِرَّ، ونال من قَرُور هوانًا كـثيـرًا، ولم يترُك له سَقْطًا، وبيـعت أسبـابُه فى موضع مَحَلَّته، قِيمَ لها ثَمَّ سُوقٌ، وأُلْقى فى الحَديد، وأُمِرَ به إلى السُّوس[1]، ولما كان طَرِيقُـه على مِكْناسة، لَقَيْناهُ، فأخـبَرَ بهَوْل ما قـاسى، وبَصُرْنا به، وهو على تلك الحـال قد شقى بـالكَبْل لعِظمِه، لا يقـدر أن يتحـرَّك به، فأوجب

(١) فى أقصى بلاد المغرب، وهى مـدينة جليلة حاضرة جامعة لكل خيـر وفضل، وأهلها أخلاط، وهذا السوس الغربى قرى وعمارات كثيرة متصلة بعضها ببعض (الروض المعطار).

ذلك ما وُسِمَ به من الشرِّ، وأنَّ أهْلَ مـالَقة رفعوا إليه حـينئذ أفعالاً قبـيحةً، وأبَاذِى سيِّـئَـةً أسداها إليهم، على ما ذُكِرَ، فاتَّفَقَت الأسبابُ، فلم يُرد الأميرُ أخذَه إلا ببيِّنةٍ، إلى أن وصل السُّوسَ، ووصَّى به أمـيرُ المسلمين إلى بَزْلَف، وبالَغَ فى إكرامـه، وكان معه فى عافـيةٍ ورَغدٍ من العيـش، وفوَّض أمْرَه إلى وُلاةِ السوس بعد بَزْلَف.

الفصل الحادى عشر

عزل بقية ملوك الطوائف
ومصير هم بعد ذلك

٧٧- موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة:

وحَانَ انصرافُ أمير المسلمين إلى بلاده بالعِدْوة، بعد أن أكْمَل ما شاءَه من أمر بنى عَبَّاد وصاحِب ألْمَرِيَّة:

ونَحنُ ذاكِرون منها ما بَلَغنا منها، مِمّا يقبله العقلُ، لا بتخليط الناس، ونختصر من الوصف ما يغنى عنه الإكثار: فإنها أمورٌ لم نُشاهدها، فنُخبَرَ عن يقين وإطناب، ولا غابت عنَّا كل الغياب، فنجهَل مَصْدَرَها ومواردها، أن الذى كنتُ فيه أشغلُ وأكرَبُ من التفات ما حدث بعدنا لقلة المبالاة بما لا يغنينا منها، ولشغلِ خواطرنا بما دَهينا به، على أنَّ ذكرَ ما سمعَ، ونحن قد أمنا من الموت، أيسر من ذكر ما عايناه، ونحن جازعون منه، فحقَّ لنا أن نذهل عن علم جليته بالمعاينة، وعن وصفه بعد الأمان، فإنه من ذكرَ الهولَ، فكأنه فيه.

وقد كان أمير المسلمين، قَبْلَ مجيئه إلى غرناطة، قد وعد المعتمدَ بها، وقال له: «أنا رجلٌ مَغْرِبى، وليس قدَّمَنى أخذُ مالٍ ولا بلاد! وقد ترى، ما رُفع على صاحب غرناطة، ونتوقع عليها من الرومىِّ، وليس غرضى أكثرَ من تخليصها، فإذا صارت فى يدى، ولا يُمكنُنى إمساكُها لبينِ بلاد الأندلُس من العدْوة، وضَعْتُها عند ذلك فى يَدِك: فتكونُ أعْلَمَ بما تَصْنَعُ بها، وأقْعَدَ لِمَا يُصْلِحُ المسلمين».

فلَمْ يشُكَّ المُعتمد أن ذلك منه كائنٌ، وَعَمِلَ حسابًا آخرَ أن قال فى نفسه: «إن لم يتهيَّأ له أخذُها بقعود صاحِبها عن الخروج إليه، فليْسَت مِمَّا

تؤخذُ من وفقة واحـدة! ستنجرُّ الحالُ من أجلها، وتشيخُ عليـها المَحلات، كمـا صُنِعَ بلِيِّـيط، وتدخل الشتـوة، فيـحتـاجُ إلى الانصراف، وتبـقى هذه المَعاقِل التى طاعت للأمير أكُونُ زعِيـمها، وفى خلال ما يتلوَّى أمْرُ غرناطة، احْتِيجَ إلىَّ، وكان لى بذلك الصولةُ على الفريقَيْن، ولا نُخْلَى من بَرَكَتِها!».

وكان الحـبيبُ إليـه أن تَبْقى على مـا ذَكَرناه، إذ لا يعلم، عند حـصوله عليهـا، ما تكون قَرْعَتُـه معه، كالذى كـان، وسكت عنِّى فى الأمْر، ولم يُرَ الانكشاف بسـرِّه إلى رَئيس يفشى عليه، غَيْـر رُموزات، إذ ذاك لا تنفع، ولو قال لى: «انْتَسِكْ!» فأنا أحْوَطُ على حـالى، أو: «اخرُجْ!» لم أُطِعْهُ ما تهمه، ولا يمكن أن يعطينى تَقْوِيَة، فيفتـضحَ عند المُرابِط، إنما كان صَنْعُ الأمير أن يَطَّلِع ويَرَى، عسى يتهيَّأ له فى النصبة شىء، أو يَسْلَم من معرَّتِه، قد تنشّبَ، ولم يَجِدْ مَحِيصًا غير ما كان بسبيله.

وكذلك ابنُ الأفْطَس مـعه على تلك الحال، وصاحِب ألمـريَّة فى ألمرية لم يتحرَّك: كلُّ أحَدٍ منهم إلى ما ينقض من أمْـرِ غرناطة، قد أبهتهم أمرُها، وأقلَقهم.

ولمَّا بصرتُ تألبَهم علىَّ مع الأمير، خاطَبْتُ كلَّ واحد منهم بكتاب أقولُ لهم: «هذا الأمـرُ مُنْجـرٌّ إليكم! واليـومَ بى وغَـداً بكم!» فلم يمكنهم قـراءة الكتب دونَه، وعـرضوها عليـه، فَحَنَق[1] علىَّ، وكُـتِبَت الأجوبة بـإملائة، يقولون: «إنَّما تُريد أن تلطخنا بأفعالك، ونحن قـد برَّأنا الله منها!» وما أشبه ذلك من الوعيد والتذنيب: فِعْلُ من قـد وَحِلَ، ولم يقدر على أكثَر ما قدمنا ذِكرَه، مع الطمع وعَمْيِ البصائر، كما وَصَفْنا قَبْل:

(١) تحرف فى المطبـوع إلى: «فخنق» بالخاء المـعجمة، ثانى الـحروف، وحَنِقَ عليه حَنَقًا: اشـتد غيظه.

وكان رُسُلهُم إليَّ قبلَ ذلك يحضُّونى على الامتساك والتَجلُّد، وقال ابن الأفطَس: «أنا أعتذرُ عنه!» ولم يَرَوا كَتْب كتابٍ خَوْفًا من أن يكون ظهيراً عليهم، غَيْرَ إهذاء ذلك على الألْسنَة، فعلمتُ أنهم قَوْمٌ قد أسْلَمونى إلى طاقَتى، فإن كانت لى، لم تَدْخُل عليهم داخلةٌ، وإن كانت علىَّ، لم يُفْسِدوا وجُوهَهم مع المُرابط، وحسبُه اجتهادُهم معه بأنفُسهم ورجالهم.

فرأيتُ حالى فى هذا كلّه تالفةً، وعَلِمْتُ أنه، طُولَ مدة امتساكى لو امْتَسكْتُ، لكان سلاطينُ الأندلُس أجمع متألبّين على فِتْنتى مع رَعِيَّتى، لِمَا يلزمهم من الطاعة للمُرابِط والطمعِ، عسى يحْصُل لأحَدٍ مزيد فى بلاده، ولا تمكن لأحَد منهم مَعُونتى ولا الاستفسَاد من أجْلى، فنحْنُ لم يُعِنْ بَعضُنا بعضًا على الرُّومىِّ! فكيفَ على المُسْلِم، مع حَرْب الكانون وقيام أهل البيت! هذا ما لا طاقة به لمن عقل! ولم نظنَّ نحن أن الأمْرَ ينفتق إلى هذا كله، ولا نُعاجل هذه المُعاجَلة، ولو عَلِمْنا ذلك، لم يكن أحدٌ يتقدمنى إلى الخروج إليه، إذ ما سِوَى ذلك على هذه الرتبة لا ينفع، وإنَّما طَمَعْنا بما قَصَصْناهُ قَبْلُ، وحَسْبُك!.

وإنه، لمَّا آلت الحالُ إلى ما لم يُجْرَ على قياس، خَرَجْنا إليه، ولم نَلْتَوِ ساعة.

٧٨- حركات المرابطين على ألمرية:

ولم يُقدِّم أميرُ المسلمين شيئًا، وقت خروجى إليه، على إرسال جيش إلى صاحب ألمرية، قبل ابن عبَّاد، إذ كان بتخلُّفِه مَوسومًا بالنفاق، ولأنَّه مُعاقِدِى على ذلك، وأنَّ تَخَلُّفَه لا يكون إلا عن اتفاق.

فلم يُحَرِّك منهـا مَوضعًا إلا وأجـابَ، وتناثَرَت مَعاقلهُ أجـمع، حتى بلغ العسكرُ إلى باب ألمرية، وكـان الرَّجُلُ ـ رحمه الله ـ ساعَةَ ورود الخـبرَ عليه بخرُوجنا، انطبق له، واعـتلَّ لما رأى من هَوْله وسوء عـاقبته، وقـضى عليه وصول العسكر إلى الباب، وهو على تلك الحـال، فأقرعَ لهـا وماتَ ووَلِيَ بعده ابنُهُ مُعِزُّ الدولة، الناهِضُ إلى قلعة حمَّاد[1] على ما نَصِفُه بعد هٰذا.

وقد كان، لِمَا رأى من طَلَب [المُرابط لبلاده] قد وجَّه إليه ابنه الآخر، يَعِظُه ويُعلمه بوَجه الحقِّ فـيه، إذ كان ينْتَحِلُ فِقهًا، وذلـك مما ذَكَرْنا من قلَّة المَيْز بالأحوال، إذ يَرَى هذه الأمورَ مشتعلةً، ويطمع إطفاءها بالوعظ! فساعةَ وصوله، أمر الأمير بثقافـه على المقام فى الحديد، وتحيَّل أبوه فى انطلاقه، حتى انصرف إليه فارًا من المرابِط: اختلسَهُ من مَوْضِعه رَجُلٌ له شَبَّاك، قذف به فى البحر حتى سَلِمَ إلى والده.

وفتـر الطلَبُ على ألمرية للشـغل بما حدث بـأمر ابن عبَّـاد، وأنَّه أوكَد الأشياء، وإنَّ ابن صُمَادِح، لما حـضرته الوفاة، وصَّى ابنه هذا المستَخْلف، وقال له: «أمْتَسِكْ فى هذه القـصبَة طولَ مقام ابن عبّاد فى مُلْكه بإشْـبيلِيَة ما استَطَعْتَ! فـإن رأيتَ ابن عبَّـاد قد خرج، فـلا تتربَّص ساعـةً واحِدةً، وَانجُ بنفسك إلى القلعَـة، وادخل البَحْرَ بما قدرته عليـه من ذخائرك، إذ لا مَطْمَعَ لك فى البقاء بَعْدَه!».

فحفظ وصيَّة أبيـه، وساعةَ ما انقضى فى إشبيليَة مـا انقضى، تَخَيَّرَ قِطعةً أشْحَنَ فـيها جمـيع ما قدر عليـه من ذخائره، وكتم أمْـرَه، وخرج باسم أنَّه

(١) قلعة حماد ـ قلعة بنى حماد ـ من أكبر البـلاد قطرًا، وهى فى سند جبل سام صعب المرتقى، وقد استدار سورها بجميع الجبل (الروض المعطار).

ناهضٌ إلى أمير المسلمين بهديَّة ليُهَدِّنَ بذلك أهل المرية، فسُرُّوا بفعله، وقالوا: «هذا هو الصواب، قبل أن يحلَّ بك ما حلَّ بغيرك!» حتى توسَّط البَحْرَ، وأعْطى للنَّواتيَّة مالاً جسيمًا، وأخبرهم غرَضَه، وخرجَ بالجزائر، وأكْرَمَه صاحب القلعة، وأمّنَهُ في ذخائره، وأكرَمَ ضيافَته، وخيَّرَه حيث يحبُّ السُّكْنَى، فاختارَ تَدَلّس، لأنَّها على البَحر، وليغيبَ عن عين السلطان، خَوْفًا من الطلَب، وانْخَمَلَ في ذاتِه، وأخَذَ لنفسه بالأرْجَح في أكثر أحْواله.

٧٩- توتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتمد:

وإن المُعْتَمِد بن عبَّاد، لما بصر بدخول الأمير غَرْناطة، واستنجز وَعْدَه، فَلم يُلْتَفتْ، ورأى ثقافَها بالمُرابطين وإخراجَ من فيها من الحَشَم وكلٌّ من طمع بالبقاء على حاله، جزع جزعًا شديدًا، وخاف أن يثنّى به، إذ رأى الأميرُ مَذْهَبَه في البلاد واستصراخَه، ولم يمكن للأمير أن يأخذَه بغير ذنب، فيقبح ذكره، وأشار إليه المُرابطون بثقافه، فأبَى حتى يلوحَ قِبَلَهُ ذَنْب يؤخَذ به، ثُمّ إنه، بعد أن نهضَ واتبَعَه قَرُور يقول له: «الأميرُ يحتاجُ إلى تذكارك بعض الأمْر!» فَأبى، ومضى لوجْهَته، فارّا بنفسه، وأطوَى المَراحِل، حتَّى وصل قُرْطُبَةَ، وقال في طريقه إلى ابن الأفطَس: «انْجُ بنفسك! فقد تَرَى ما حلَّ بصاحبِ غَرْناطة، وغَدًا بنا!».

ثمَّ إنه، بعد أن ظهَر للأمير نُفُورُه، وَجَّهَ إليه يأمُرُه بالقدوم عليه، ويقول له: «نُرِيدُ الاجتماعَ بك فيما نحنُ بسبيله» ليقولَ: «لا!» فَيجدَ السبيلَ، كما فَعَل، فراجَعَهُ ابنُ عبَّاد: «إنَّ ذلك كان وَقْتَ كُنْتَ ضَيفًا، وتُريدُ الغَزْوَ، فلزمتْنى معونتُك بنفسى وجميع أموالى! والآن إنَّما أنت لى جارٌ مِثل باديس

وحفِـيدِه، وأنْتَ أقْدَرُ مِنِّى على الشـرِّ بجنُودِك! فلا يُمْكِنُنى التغـريرُ بنفسى، عسى أنك تُرِيد أخْـذَ بَلَدِى، إذ لا تصحُّ لك غَرْناطةُ إلاَّ بما يضاف إلـيها من الأنْدلُس!» فشـرط عليه أميرُ المـسلمين أن يلتزم الرِّباط، ويقطع القَـبَالات، وتَحامُلاً كثـيرًا عَلِمَ أنه لا يفعله، وفى تركِهِ أو فعله قطعهُ، فـامْتَنَعَ ابنُ عبَّاد جَهْدَه، وبَنَى على الشرِّ.

وبـدأ [المُـرابطُ] بِمُداخَلَة مَعَاقِلِه، فانْتَشَـرَتْ، كما جرى لغيرها، وقامت عليه الرعايا بكلِّ قطرٍ، فأرسل إذ ذاك إلى الرومىِّ، يستـغيث به، فقعد عنه، خَيْـفَةً من التغرير، وهى حُـجَّةُ أمير المـسلمين على ابن عبَّـاد، أن قال له: «ظَفَرْتُ بكُتُبِك إلى الرُّومىِّ وإرسالك عنه!» فقال المُـعتمد: «لو فَعَلْتُهُ قَبْلَ أنْ تُؤخَـذَ بلادى بَطَرًا وأشَرًا، كُنتُ أُلام! وأمَّـا بعـدَ أن رأيتُ طَلَبِى فى الروح، اضطَرَّتْنى الضَّرُورةُ إلى ذلك للمُدافَعة، ولو يومًا واحدًا!».

وهى كانت عِلَّةُ الجميع، وبذلك هلك ابنُ الأفْطَس، ومِنهُ أُتِىَ.

٨٠- الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفى ابن عباد:

فلمّا تبـين للأمير خلافُـه وقُعودُه عنه، شاوَرَ الفُـقهاء فى أمْرِه، فـأشارُوا عليه بغَـزْوِه، فكان غَزْوُهُ بعد إبلاء عُـذْرٍ، ولهذا ما أخَّـر به لِيُهْلِكَ من هلك عن بيِّنة ولتكونَ له الحُجَّة على من يُرِيدُ إخراجَه، فـأمَرَ الأميرَ سِير بالخروج إليه، ونَهَضَ، ونَحْنُ بِمِكْناسة، ونازلهُ مُدةً طوِيلةً، ومَـعاقِلُه قد ذهب أكْثَرُها بالطاعة.

وافتـتح الأميرُ بخـلال هذا مدينةَ قُـرْطُبة، واستُـشهِدَ فـيها ابنُه المـأمون ووزيراهُ ابنُ زَيْدُون وابنُ بكْـر ـ رحمـهم الله ـ بمُـداخَلَةِ مـن أهْلِ البلَد، مع

انخراق المدينة، وأنَّه لم يمكن ضَبْطُها إلاَّ بأَهْلِهـا، وكان المُعتَمِد حَذِراً على قُرْطُبة، يرجو بَقاء حاله بثُبوتها، ويُوصى ابنَه بالصبر، ويقول له: «لا تجزع! فالموتُ أَهْوَنُ من الذّلّ! ولَيْسَ السُّلطانُ إلاَّ من القَصْر إلى القَبْر!».

فلمَّا أُخِذَتْ قُرْطُبـة، انقطع الرجاء، وضاقَتْ إشْبِيلِيَة، ونفـد ما كان بيده من أَجْل النفقات، إلى أن دخلها الأميـرُ سِير عُنْوةً بمُداخَلة من بَعْض أهلها، وهلك فيهـا عالَمٌ، وانكشف الحُرَمُ، إذْ للجَيْش مَعَرَّةٌ لا تُمْلَك بَـعْدَ صَبْرِهم على مَلِكِهم، وظهر لِسير من اجتهادهم فى القتال ما أعجبه ذلك، وقال: «لو أنِّى أقصد مدينةَ الشِّرْك، لم تَمْتَنِعْ هذا الامتناع!».

وكان دخولُها من ناحية الوادى، وهو أَسْـهَلُ الأماكِن، ولولا صبْر أَهْلها وكَثْرة أقاربِ ابنِ عبَّاد، لم يستطِع [المُعْتَمِدُ] على شىء، فكأنَّهُ غُلِبَ بالثِّقاتِ الذين كـانت الأبوابُ بـأيديهم، ووكَّلَهم بمَنْ سِـوَاهم، إلـى أن لم يكُنْ مع القضاء مَدْفَعٌ، وكان دُخولها يوم الأحد فى [٢٢] رَجَـب [سنة ٤٨٤] فى التأريخ الذى دُخِلَتْ فيه غَرْناطة بَعْدها بعامٍ كامِلٍ.

ودُخِلَت قَبْلَها قَرْمُونَة،(١) ومات فيها عالَمٌ كثيرٌ، ثُمَّ الْتَوَى أمْرُ رُنْدَة(٢)، ونَازَلَهـا قَرُور، إلى أن ظفـر بالراضِى، وخَدَعَـهُ، وحصل على أمـواله، ثمَّ قَتَلَه، خَـوفًا من أن تفتضِحَ تلك الأمـوالُ، وقيلَ: إن ذلك لم يكن عن رأى السـلطان، وأمَـرَ بـقَـتْلِ كلِّ مـن ظفـر بـه فى رُنْدة المـذكـورة من الأحـرار

(١) قرمونة: مدينة بالأندلس فى الشرق من إشبيلية، وهى مدينة كـبيرة قديمة، وهى فى سفح جبل عليها سور حجارة من بنيان الأول، وبها جامع من البناء وسوقها جامعة (الروض المعطار).

(٢) رنـدة: بالأندلس من مدن تاكرنّا، وهى مدينة قديمة بهـا آثار كثيرة، وهى على نهر ينسب إليها (الروض المعطار).

والجُند المُقاتلين، وقُتل فيها رَجُلٌ من العَرَب يُعرف بأبى الصِّمْصَام، جرأةً على الله، ليأخُذَ بِنْتَهُ، ونكحها من بعده، وحصل على ماله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ (هود: ١٢٣) وامْتَسَكَ بالعَبِيد، وصيَّرَهم إلى السلطان.

ولمَّا ظفر بابن عَبَّاد، فَيَّأَ الأميرُ سِيرُ خدَمَهُ وعَبِيدَهُ، حاشى أُمَّهَات الأولاد، وأمَرَهُ أميرُ المسلمين بإرساله إليه، فقدم إلينا بمكناسة مع دَخْلَتِه، وبَقِيَ فيها إلى أن سِيقَ معنا إلى أغْمات[1].

٨١- قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكش:

وإنَّ أمير المسلمين، لمَّا فتح الله له فى هذا كلِّه، أخَذَ فى الانصراف إلى مَرُّوكُش، وقد بلغ من آماله غايتَها، وامتَلأَتْ يَداهُ بالأموال، وقسم على أجناده بعضًا من الفَيء، وأهدَى إلى الصَّحْراوِىِّ عَمِّه من تلك الذخائر.

وأمرنا أن نَسْتَوْطِنَ أغْمَات، فأتَيناها، ولقينا من أمير المسلمين كلَّ جميل، وأنزلَنا بداره الصُّغْرَى فى الحريم، ولم يَزَلْ يَعْتَقِدُنا من إنعامه، كَيْفما هيَّأ الله على يديه، ووَجَدْناهُ بعد الله أرفَقَ بنا، وأحْسَنَ مَذهَبٍ فينا من الناس أجمعين، ومن كلٍّ من سبق إليه منَّا إحسانٌ.

٨٢- عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ومهلكه:

وبَقِيَ ابنُ الأفْطَس يتخدَّم أمْرَه، وكان يُدَارى ابن الأحْسَن، وينفَعِلُ له فى كلِّ ما أراد، طمعًا منه فى البقاء لحَيْنِه، وهو، فى ذلك كلِّه، يُنْهِشُ، ويُرِى آيات تَدُلُّ على الشرِّ، وأنَّ المذهب فى أخْذِه، ودَاخَلَ عليه ابن الأحْسَن فى بلده، فشعر بذلك، وتيقَّظ له، واستوحش من المُرابطين، وداخل الرُّومِىَّ، فحقَّتْ عليه المُطالَبة، وسُعِىَ عليه جَهْرًا، بعد السَّعْى سرًّا، وهو، فى ذلك كلِّه، مِثْل السَّمَكة العاجزة المَوْصُوفة فى «كتاب دِمْنَة» لم تَزَلْ فى تَقَلُّب

(١) أغمات: بأرض المغرب بقرب وادى درعة. (الروض المعطار).

وتَرَدُّدٍ، حتَّى أخذَها الصيَّادُ، وهو كذلك يُريدُ أن يُخَلِّطَ: يُخَاطِبُ الأميرَ بإظهار الطاعة والمُشاركة فى أمر الرُّومىِّ، ويُخاطِب ألْفُونش ليستعينَ به على مُلِمَّةٍ، إن دَهَتْهُ من المُرابِطين، وكان ابنُه المنصورُ داهِيَةً بالأمور، قد أُشْرِبَ قَلْبُه الحذْرَ والخَوْفَ، وقد رأى طريقةَ ابنِ الأحْسَن، وسعْيَه على أبيه، وهو رَجُلٌ سِجِلْمَاسِىٌّ فَقيهٌ، مُتَصَرِّفٌ فى أُمور الأمير، استَوْطَنَ بَطَلْيَوْسَ، واكتسب فيها مالاً، يَرَى أنَّ كَوْنَه فى الثَّغرِ لِمَا ينفع المسلمين، وهو يعمل فى خَلْعِ صاحِبِها.

وكان ابنُ الأفطَس الشيخُ مُتَّبِعًا لهَوَاهُ، لو سألَهُ روحُهُ ما لا يَحِلُّ عليه [عمل] به، مُتَوَقِّعًا لشرِّه، وكلُّ شىء يحذرُه الإنسانُ ويكرهُه بقلبه، ولا يكون عليه بالخيار، فهو مُتَوَرِّطٌ لا مَحالة، فيه، فإن المُدارة فيه مما لا تنفع، والاستِعْمالُ مُنْقَطِع، ولا خَيْرَ فى مُجاوَرة عدوِّك عند الحاجة إليه، إلاَّ أن تَدْرَى عند ذمِّ العاقِبةِ معه أنَّكَ مُسْتَغْنٍ عنه بغَيْرِه، وإلاَّ، فأنتَ له طُعْمةٌ.

فقال له ابنُه المنصورُ: «هذا التردُّدَ لا يجزِئُك، ولا يغنى عنك ما تُرِى من إظهار الطاعة للمُرابط! ولا طاعةَ أهْلِ بَلَدِكَ لَكَ ومَحَبَّتهم التى كانوا يعرضون عليك! فلو أنَّهم يَرَوْنَ بعضَ حقيقةٍ فى عزيمة، لَمَا أبْقَوْا عليك، كالذى رأيتَ صُنِعَ بغَيْرِكَ! فإمّا أن تُصْفِىَ للمُرابِط، فلَنْ تَبْلَغ مرْضاته إلا بالانخلاع له ووَضْعِ البَلَد فى يديه، وتَقَنَّعْ بأن تكون مُتَحَرِّيًا، مُتَخَلِّيًا عن الرياسة، فعَاجِلْ ذلك، تَجِدُ عنده الأمانَ! وإن نفَرَتْ نفسُك عنه، فلا تتأخَّرْ عن الفِرار منه بنَفْسِك وأهْلِك وجميعِ أموالِكَ! يجعلك الرُّومىُّ فى أىِّ بلدة شئْتَ، وربَّما سوَّغَها لك، كما فَعَلَ بابن ذى النُّون فى بَلَنْسِيَة، وتَتْرُكُ مدينة بَطَلْيَوْس، لا تدخل على المسلمين داخلةٌ، فيحصل لك النجاةُ بمُهْجَتِك،

وسلامةُ البَلَد للمسلمين!» فقال له أبوه، وسَفَّهَ رأيَه: «لا أترُكُ مَوْضِعِي! وعسى أن تُهَيِّئَ الأقدارُ ضِدَّ ما تَظُنُّ!» فخرج عنها ابنُه، ونَجَا بماله وأهله، وأخذَ لنفسه بالرأى الذى أشار به على أبيه، وبَقِيَ الشيخ لحَيْنِه، حتى نفذ أمرُ الله فيه.

وإنَّ الأمير سِيرَ، لِمَا أراد من التخدُّم لأمْرِ بَطَلْيَوْس والحيلةِ فيها، لم يَثِقْ بنفسه فى ذلك، لحدوث ولايته الأندلُس، ورأى أنَّ الداءَ لا يُعانى إلاَّ بدَاوَائه، ولا يُلقَى أحَدٌ إلاَّ بحَجَره، فتخيَّر لذلك ابن رشيق، لأنه أنْدَلُسىٌّ، عالِمٌ بالمكايد فى الفتون، مع ما كان له عليه من الأيادى قَبْلُ فى لِيِّط، وأنَّ ثقافَه ذلك الوقتَ لم يكن إلاَّ على رغْمٍ منه بمُضَادَّة قَرُور له، فانتهز الفُرْصةَ فى إطلاقه، والمُكافأة له على صَنِيعه بما يأمرهُ من أمْرِ بَطَلْيَوْس.

وخاطَبَ السلطانَ فى أمره، بعد أن أطْنَبَ من صفَة حاجته إليه، فقبل قَوْلَه، وأمَرَ بإرسال، وألْطَفَ له القَوْل، واعتذر إليه مِمَّا جَرَى، وأمر له بمال جسيم، ونَهَضَ، بعد أن حَدّ له الوقوف عندَ أوامرِ سِير، وأنّه مُستَحْيِيه، فمضَى، وفجيء الناس من انطلاقه ما تعَجَّبوا منه وخلَّطوا القول فى ذلك، كلَّ أحَدٍ على مِقْدار عَقْله أو شَهْوَته.

فلمَّا وصل، تَخَدَّمَ أمْرَ بَطَلْيَوس بكلِّ وَجْه من المُداخَلة لأهْل البلد ومن معه فى القَصَبَة من الحَرَس وغيرِهم، حتى وقع الاتِّفاق على أن يطرقَها لَيْلاً، ويفتحوا له [الباب] فكان من ذلك ما حاوَلُوهُ، وتعلَّقوا بالسُّور عند الإمارة التى كانت مع من دَاخِلَه، وتُقُبِّضَ على الشَّيخ وابْنَيْهِ الفَضْلِ والعَبَّاسِ، واحتُوِى له أموال جسيمة، وأمَرَ سِيرُ بإخراجه للقَتْل، بعد أن رأى فى نفسه

هوانًا عظيمًـا، وشدَّةً على المال، ونقم عليـه ما كان من عَـمَلِه مع النصارى والمَعَاقِل التى أعطاهم، فأمرَ بقَتْلِه مع ابنَيْه الفَضْل والعباس ـ رحمهم الله.

وطَاعَ جميعُ ذلك الثَّغْرِ للمُـرابِطين، كأنَّه لم يكن قطُّ لغَيرِهم، وفِيَ أهْلُه وبناتهُ، وجمـيعُ ما تَرَكَه، ثمّ صـار ابنُه المنصورُ فى جُملة الرُّوم، حَنَقًـا لما جرَى على أبيه، يطلب الثأر، ويتطرَّق معهم بلاد المسلمين.

٨٣- نشاط المرابطين ضد النصارى

استيلاء «السيد» لذريق على بلنسية

وصرف المُـرابطون وجُوهَهم إلى فِتـنة الرُّوم ومُقاصَـاتِها، بعد إكـمالِهم لأخذ سلاطين الأندلُس، يقولون: «إنَّه لا ينبغى لنا قتالُ الروم، ونَتْرك وراءنا الأعْداءَ، ممَّـن يُوَاسِى عَلَيْنَا مَعَهم!» فكُلُّها تَـهيَّأتْ بلا مَشَقَّـةٍ غير إشبِـيلِيَة، فوقع فيها بعض التغَدُّر، كما قدَّمْنا ذِكْـرَه، فسُبْحان المقدر الذى إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كُنْ» فـيكون، هذا نَصٌّ ما كـان ولا نعلم ما يكون، كمـا قال بعض الشُّعَراء:

وأعْلَمُ عِلْمَ الـيَـوْمِ والأمْسِ قَـبْلَه
ولَكنَّنى عَنْ عِلْمِ مـا فى غَـدٍ عَمِ

ثم نشأ بعد ذلك من أمْرِ بَلَنْسِيَة ما لم يَنْبلجْ بها ما يوصَف، فإنَّ الحديث لا يَحْسُن ذِكْرُه إلاَّ بَعْدَ تَفَضِّى آخِرِه، والقَوْسُ لا تُكَبَّد إلاَّ بقَبْضِ طَرَفَيْها، فإذا استكمل الخَبَر، طابَ إيرادُه وحسُنَ مَوْقعُه، ونُمِّق بَعْضُه ببَعْض، ولو أنَّا نَدَعُ هذا التألـيف إلى مُدَّةٍ يتمُّ فيـها خَـبَر بَلَنْسيـة، لأتيْنا به بَعْدَ أن يكـون الظهرُ للمسلمين، وتُرِكَ هذا الدِّيوان مَخْرُومًا، انتظارًا لمَا يكون فيه أمَلٌ بعيدٌ.

واستئنافُ تأريخ له فصولٌ لا يُعْنى، لا سيَّما أنَّنا أخَذْنا أنْفُسَنا في حيِّز تمامه بما يليق بالزمان، ورُضْناها بما تستمرُّ عليه من تَرْك الشَّرَه والتَّنزُّه عما فات، وإعمال قَطْع اليأسِ عمَّا قيل، واليأس عما فات يُعَقِّب راحةً، ولَرُبَّ مُطْعَمَةٍ تعود دُرّاخًا.

فإذا كان ذلك كذلك، فأوَّل ما يَجبُ أخْذُ أنْفُسِنا به إخلاصُ النِّيَّة لأمير المسلمين ـ أيَّدهُ الله! ـ وتَمَنِّى الخَير له، لأنَّ صلاحَ المسلمين بصلاحه، ومن الديانة اعتقاد ذلك، لِمَا أُمِرَ به من طاعة الأئمَّة والنُّصْح لكلِّ مُسْلم، لا سيما أنَّه مُحْسِنٌ إلينا، ثمَّ اقْتَصَرْنا على النظر فيما يخصُّنا وأنْزَلْنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قطُّ إلاَّ على هذه الحالة، واعتَبرْنا بمن كان قَبْلنا، ونَظَرْنا لمن هو دوننا.

٨٤- تأملات في تقلب الأقدار:

وما حلَّ بابن الأفطَس، فشكرنا الله على ما نَجَّانا منه، وصرَّفْنا وَجْهَ اهتبالنا إلى ما ننتفع به، وغَلَّبْنا النفسَ الناطقةَ على الحَيَوانيَّة، فإنها تحمل على الفضائل والإنصاف، ومَعْرِفة حقائق الأشياء، كما أنَّ الحَيوانيَّة تحمل على الغلبة، وإيثار الشهوات، والحيدة عن سُبُل المَعْرفَة.

ورأينا أنَّ شُغْلَ البال بما مَضى لا يَرُدُّ شيئًا غير الهمِّ والكرب اللَّذَيْن يُنحلان الجِسْمَ ويُذْهِبان اللُّبَّ، وأنَّ الحَرَجَ على ما لا يكون تعبٌ للبَدَن ومَشَقَّةٌ للإنسان، لأن الفلاسفة تقول[1]: لا يُلْتَذُّ بما مَضَى، ولا يُدْرَى ما يكون فيما بَقِيَ، وإنما له لذةُ ساعَته التى هو فيها، أو عَمَلُه الذى يَجدُه لِمَعاده، فإن أعْقَبَ الله بخير، فَلَنْ نَخْسَرَ ما سَلَفَ من أيامنا، فَنَهْرمَ قَبْلَ أوان

(١) فى المطبوع: «لأنَّ تقول الفلاسفة» ولا وجه له.

الهَرَم، وإن كان الذى يأتى أشد من هذا، فيحقُّ اغتنامُ ما نحنُ فيه، ونعُدُّها أعيادًا، ونُحدِثُ لله عمَلاً يرْضاهُ، وإن كنّا أبدًا على هذه الرقبة بلا انتقال (وغَيْر متمكِّنٍ من ذلك) فتوطِينُ النفس على ما يَعْلَمُ أنها عليه دائمةٌ، أحْرَى وأرْوَحُ للبالِ.

ثمّ إنِّى اعتبَرْتُ جميع ما فى الدُّنيا، التى إليها يَسْعَى الناسُ، فوجدتُ نفسى مُبْلِغةً منها كل أمَلٍ، وإن انقَطَعَتْ، فلم نصحبْها، ونحنُ منها على يقينٍ بتَخلِيدِها، بل، لكلِّ شىء مُدّةٌ، ولا بُدّ من تَرْكِها، والخروجُ منها فى مُدّة العُمُر خيرٌ من مِيتَةٍ على فِتْنةٍ أو غَرْقٍ، عَسَى بذلك أن يُعْظِمَ الله الأجْرَ، ويُكَفِّر السيِّئات، ويكون ذلك للإنسان زاجرًا عن الآثام، ويعتبرُ فَقْدَ مالِهِ كأنّه لم يكتَسِبْه برَزِيّةِ نفسه إذ حان حينُه، فيُقَدِّم بها النظَرَ، بتوفيق الله تعالى، قبل الموت وحلول الفوت، والله المُستَعان! لا شَرِيك له!.

سُئِلَ النبىُّ ـ عليه السلام ـ عن عَلامِةَ انشراحِ القَلْب للإسلام، فقال: «هو التَّجافِى عن دار الغرور، والإنابةُ إلى دار الخلود، والاستِعْدادُ بالموت قبل لقاء الفوت».

الفصل الثانى عشر

تأملات أخيرة بعد النفى

٨٥- المؤلف والشعر

وإذ قد أتينا علــى وصف بعض الحادثات بالأندلس، ورتبــة دَوْلَتنا، وما انتَهَتْ إليه فيــها أحكامُنا، حسبما ساعَدتنا عليــه أذهانُنا، ونالَتْهُ مَقْدُرَتُنا، إلى انصرام الأمد، فلــنرجع الآن إلى ذكر بعض ما يتعلق بذلك من شِــعْرٍ نَظَّمْناهُ وَقْتَ فــراغِ البال وجِــمامِ النفس، مع مــا أعــان على ذلك من النَّظَرِ إلى كلِّ مُسْتَحْسَنٍ، والسُّرُورِ بطيب كلِّ خَبرٍ.

على أنَّنى لم أنْتَحِلْهُ قَــبْلُ، ولا كان من شأنى الأخْذُ به، إلاَّ علــى سبيل الاستطراف والإطناب فى وَصْفِ شىء أُريدُ نَعْتَــهُ، فَرُبَّما صَنَعْتُ فى البَيْتِ أو البَيْتَــينِ أيَّامًا، أُحْضِرُ لها ذِهْنى، وأحــدُّ فِكْرِى، فتصدع بعد كَــدٍ، وما أكادُ، كالشىء المُسْــتَغْرَبِ من غَيْــرِ مَعْدِنِه، فيُنْشِدُها الكَتَبَةُ فى مجالس الاحــتفال للراحات، نقطع بذلك الزمان عند الفراغ من الشُّغْل، كالذى يأخُذُ به الملوكُ أنفسهُم فى ساعات الدَّعَة، ونُضِيفُ معها لُمَعًا من آدابٍ وسِيَرٍ تُحْضِرُنى، ممَّا يختلج فى الخاطر ويُجْرِيها الإنسانُ بصُحْبة الزمان وتَنَقلِه فى الحالات، وقيلَ لرَجل: «من أين لك هذا العلْمُ؟» فقال: «قَلبًا عقولاً، ولسانًا سَئُولاً!».

٨٦- استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره:

وكُلُّ شىء إنَّما ينطبعُ فى النشأة وحِــينِ المَوْلِد، ولقد طالَعْتُ من مَوْلِدى أشياء مَــيَّزْتُها من طبائعى وأخــلاقى، على أنَّ واضعيه ألْفُــوهُ ونَحْنُ فى حالِ الطفوليَّة، لم يُوصَل إذ ذاك إلى معرفة شىء من أحوالى، وكتَمَهُ عنِّى سِماجَةً مُدَّةً، حتَّى وقع السِّــفْرِ إلى يدى على غَيْرِ ظَنٍّ، فشَقَّ ذلك عليــه، خَوْفًا علىَّ

من العُجْب بما كان فيه مَنصُوصًا من السعادة، فطالَعتُ منه عجائبَ وغَرائبَ، إذ كان المَوْلِدُ رصْدى، وكان الطالِعُ الحوتَ بأرْبَع دَرَج، وصاحِبُه المُشتَرِى فى الحادِى عَشَر مع الزُّهَرَة، وسَقَطَتْ الشمسُ فى الدَّلوِ مع عُطارِد، واتَّفَقَت النَّحْسَانِ فى الثَّورِ بَيْتَ الأُخُوَّة والقَرَابة، وصار القَمَرُ هَيْلاَجًا إذْ كان فى السابع من البُرُوج، فصَلُحَ لذلك لأجْلِ سُقُوطِ نَيِّرِ النَّوبَة، والزُّهَرةُ كَدْخُدَاهُ، دُلَّتْ بمكانِها ـ والله أعْلَم ـ على قَولِهم، على سِنِيها الوُسْطَى خَمْسٌ وأربعونَ سَنَةً يزيدُها المُشْتَرِى سِنِيه الصُّغْرَى اثنَىْ عَشَرَ عامًا، فجميعُ ذلك سبعةٌ وخمسون عامًا، والله بغَيْبِه أعلمُ!.

وتكَلَّمَ (الطالِعُ) على أرْبابِ مُثَلَّثات النَّيِّرِ الدالَّةِ على تقسيمِ السعادة للمَوْلود، فكانَ رَبُّ المُثَلَّثَةِ الأولَى زُحَلَ، ومَعهُ المِرِّيخ فى بَيْتِ غُرُوبِه، فدَلَّ على أنَّ الثُّلُثَ الأوَّلَ فيه بَعْضُ التَّقْدِيرِ والتَّنْغيصِ والتكْديرِ، ومِثلَهُ الثُّلُثُ الثانى الذى لعُطارِد، إذ كان فى بَيْتِ الشَّقَاء والهُمُومِ، مَحْسُورًا بَيْنَ النَّحْسَيْنِ، فَدلَّ على مِثْلِ ذلك وأشَدَّ، كالذى تَبَيَّنَ الآنَ، والقسمةُ الثالثةُ للمُشْتَرِى، وهو فى بيت الرَّجاءِ والسَّعادةِ، فَدَلَّ على ضِدِّ ذلك كُلِّه، وأطْنَبَ فى وَصْفِ السعادةِ فيه، لا أدرِى كيف هو، إذ هو بعيدٌ فى القِياس، قريبٌ فى قدرة الله.

ثمَّ وَصَفَ خَبَرَ الأمْراضِ، فدَلَّ على الأمراض النَّفْسانيَّة من السَّوْداء وحِدْثانِ النفس بأشياء مُخَوِّفةٍ.

وذكَرَ خَبَرَ البَنين، فقال: حيث شَهِدَ شاهدٌ، يكونُ الوَلَدُ، وشَهِدَ آخرُ بأنَّ لا وَلَد، ودَلَّ على القِلَّةِ، إلاَّ أنَّه لا بُدَّ من كَونِهم، وإنْ كان ما ذَكَرْناهُ دليلاً على قِلَّتِهِمْ، وربَّما كان ذلك فى نِصفِ العُمُر، فظَهَرَ ذلك بنَشْأتِهم الآنَ.

وذَكَرَ خبَـرَ الزهادة فى الحرام كُلِّه، وحَقٌّ ذلك لكُلِّ أحَد، غَـيْر أنَّ الذى يَتَهَيَّأ فى نَصْبه المَـوْلِد أغْلَبُ على الطَّبْع، ثمَّ نَظَرَ فى وجْه التَّعَفُّف، والبَحْث على ما أوْجَبَ ذلك، وأنَّ تلك الزَّهادة من تِلْقَـاء نَفْسه مع سلامة المُعْـتقَد، فإنَّ الـزُّهَرَة، إذ كانت فى أحـد بيوت زُحَل، ظَهَـرَ على المَوْلُود قُبْحُ ذلك الشَّرَه، فَتَعَفُّفٌ، وقال إنَّ حِكْمَتَهُ فى يدَيْه أكْثَر منها فى لِسانه.

ورأى صـاحِبَ بَيْت العُـرْسِ، وهو عُطَـارِد، فى بيت زُحَل، فـدَلَّ على المَيْل إلى الصِّغار ذوى الطبائع العُطارِدِيَّة، مع مُنافَرَةٍ لا تُبيحهُ الشَّرِيعةُ، إذ لم يكُنْ بَيْنَ صاحِبِ العُرْسِ وصاحِبِ الطالِع مُواصَلَةٌ ولا مُشَاكَلَةٌ.

كُلُّ هذا قـد عَلِمْناهُ من أنْفُسِنا، كـأنه حاضِـرٌ معـنا، ومُطَّلِعٌ علينا، فلم نَشُكَّ فى صحَّتِه بإذن الله، فسُبْحانَ مُصَرِّفُ الأيَّام ومُجْرِى الأفْلاَك!.

(الفَلَكُ مـا استـدار من الأشيـاء، وهو قولُهُ تعـالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٣) وسَمَّاها سَمَاء، فإنَّ العَرَبَ تدعو كلَّ ما ارتفع سَمَاءَ، فهى، لارتِفاعها علينا، سماءٌ، وهَيْئَتُها: فَلَكٌ، لا سَماءٌ).

٨٧- آراء المؤلف فى التنجيم:

ولا يَعْلَم الغـيْبَ إلا الله، غَـيرَ أنَّ أهل العَـقْل منهم يقـولون: إنَّمـا هى دلائلُ على الخيْـر والشرِّ، ولا يُعْلَمُ بهـا الجَلِيَّةُ، كالْغَـيْثِ المنزَل دَليلٌ على نبات الـزرع به، أو كالنار المـشتعـلة بمكان عَلَمٌ أنَّها مُـحْرِقَـةٌ، ويحتَـجُّون بحديث الرسول ـ ﷺ ـ فى قـوله: أقْبَلَتْ بحريةٌ، فتشـاءمت، فتلك عينٌ غـدِيقةٌ، ومُـعاناةُ الحكيم المـاهِرِ دَلِيلٌ على بُرْئِه، يرجى له ذلك إن أخَّـرَتْه المُدَّة.

وجيء بطبيبٍ عالِمٍ إلى أحد العُظمـاء من بلاد الهِنْد، فلمّا شكا المريضُ إليه، قـال له الحكيم: «قد بريتَ بحول الله!» فلمـا أعْلَمه التُّرْجُمـانُ بقوله، قال العَليلُ: «إن شاء الله!» فأجابَه الحكيمُ: «إنَّ الله قد شاءَ: لم يسُقْنى إليك من أرض الهِنْد إلاَّ وقد قضى بصحّتك!».

وقد أغْلَى أهْلُ الهِنْد فـى هذا العلْم، ومنهم مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعًـا، حتَّى إن فيهم من لا يولِّى مَـمْلَكَتهم إلاَّ مَنْ شاكَلَ طالعُه طالِـعَ الدولة، وهم يزعمون أنَّ طالِعَ المَلِك، إن لم يكن وَتَدًا من أوتَادِ المَمْلَكَة، أو كـان منها ثانى عَشرَ أو سادِسًا، وأمْكِنةُ الكواكبِ غَيْرُ مُتَّفَقَـة لذلك، فإنَّهُ ينحِسُها، ولو بلغ الجهْدُ من الاحتيـاطِ عليها: إمَّا تُهْلِكهُ، أو يُهْلِكهـا، ضَرَورةً تسوقُه الأقـدارُ إليها، فكانوا يتخيَّرُون الطوالع قبل اختـيار العقول والمذاهب، يَرَوْنَ أنَّ القَدَرَ أغْلَبُ من الرأى، ويقولون: «لك سـعادةُ الدولة ومُسـاعَدَةُ الأقدار! هَيَّـاتَ لما هَذِهِ الآراءَ لطولِ المُدَدَ».

ثمَّ إنَّهم يزعمون أنَّ العُمُرَ الطبيعىَّ مائة وعشرون عامًا، وأنَّ القواطِعَ التى تكون قَبْلَهُ إنَّما هى من أحـداثٍ داخلةٍ على الإنسان، عَرَضيَّةٌ، إمَّـا من فساد المزاج، فـتخـورُ الطبيعـة، إذ جعلوا الأربع طبـائع التى فى الإنسان قـوامَه كأركانِ البَيْت، فمَـتَى فسدَتْ منها طبيعةٌ، اعتَلَّ الجِـسْم، وإن تغيَّرَتْ كلُّها، مات، وجـعلوها مُشاكلةً للأزْمِنة: فالـدَّمُ رَبيعىٌّ، والبَلْغَمُ شِتْوىٌّ، والصَّـفْراءُ صَيْـفِيَّـةٌ، والسَّوْداءُ خَرِيفـيَّةٌ، فـمَنْ عالَجَ كلَّ زمـانٍ منها بضِـدِّه من الأغْذِية والأدْوية، فقد أصاب، ولا باقى مع الله!.

و [لَمّـا] احْتجَّ عليهم بالذى يموت فجأةً أو فى زَحْمَةٍ، أو بأرَقٍّ سَبَب،

وهو يظهر صحيح الجِسْمِ، أضافوا إلى الطِّبِّ من عِلْم النجوم، واتَّفق رأيُهم أن لا فَلْسَفَة تتمُّ حتَّى يجمعها، وأنَّ لا قوامَ لأحدِ العلمَين دون الآخَرِ، فقالوا: إنَّما ذلك من الهيَالِيج الساقطة، فإنَّ المَوْلودَ، إذا كانت هَيَاليجُهُ ساهرةً، صحَّ ارتباطُ نفسه بجسمه، فلا تخرجُ إلاَّ عنْ مَشَقَّة مع تمام المُدَّة التى تدلُّ عليها العطِيَّة، وإن كانت هَيَاليجُهُ ساقطةً كلَّها، عرض للموت بأرَقِّ سببٍ، فإن لم يكن له هَيْلاج، سيِّرت المَطْلَعيَّة وعُدَّ لها أعوامٌ، ويكون القطْعُ عند تمامها، وقد يكون فى تَحَاوِيل السِّنِينَ، وإن تتمَّ العطِيَّة عند انتهاء صاحِبِ حَدِّ الدَّرجَة إلى موضعِ نحسٍ، قَطْعٌ أو شبه القَطْع، إن لم تُسَاعِده النجومُ السعيدةُ، وسمَّوْهُ الجَانْ بَخْتان، وهو دليلُ الحياة بإذن الله.

ومنهم من رأى ذلك قوَّةً لنفسه، ورضِيَ بما قسم له البارئ ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا ينقد على نفسه، وعيش طيب العَيْش، يدرى أن لا قاطِعَ يقطع به فى تلك المُدَّة، ويُشَجِّع لقول علىٍّ ـ رضي الله عنه ـ لرجُلٍ قد أسَنَّ: «أية شجاعة قد فاتَتْك!» يعنى: لو أنَّكَ قَبْل اليوم تدرى أنَّ هذا يكون عُمُرَك لم تُبالِ.

وأمَّا أنا، فَأقول: إنه تأنيسٌ ما لم تقرب المُدَّة، وزيادةٌ فى ألَمِ المَنِيَّة إذا اقْتَرَبَتْ، ولا يكون الطِّبُّ إلاَّ ليُصِحَّ البَدَن مُدة الحياة لكراهيَّة العَيْشِ فى نكد، وأمَّا لِدَفْعِ أجَلٍ، فلا ينفع شيءٌ.

٨٨- آراء طبية فى الأغذية والنبيذ:

قال بعض الحُكماء: «الناس يعيشون[1] ليأكُلوا، ونَحْنُ نأكُلُ لِنَعِيشَ!» فتأمَّلْ مَعْناهُ.

وجمع أحَدُ الملوك أطِبَّاءَهُ، فقال لهم: «أعْلِمونى بالدواء الذى لا داءَ

(١) فى المطبوع: «يعيشوا».

معه!» فكلُّهم تكلم على الأدْوية والمُعاناةِ بها، غَيْرَ واحدٍ منهم كان أكبرهم سنًا، فردَّ عليهم أن: «ليس عن هذا سألكم الأميرُ! ولكنَّهُ يأذنُ لى فى الكلام؟» قال: «قُلْ! فأنْتُمُ مَعْدنُ الحكْمة والفَلْسَفَة!» فقال «أيُّها الأمير! إن الدواء الذى لا داء معه أن تكونَ، عِنْدَ أخذك للغَذاء، تَتْرُكُ منه بقَدْرِ ما تتمُّ به الشبعة، ولو لُقْمَتَيْنِ، ولا تتملأ! فذاك دواءٌ لا يحتاجُ معه إلى طبيبٍ!».

وذُكِرَ هذا عن الرَّشيد، أنه قُدِّمَ بين يديه قَصْعةٌ بطعامٍ، فلما أكل قال: «هذا غذاءٌ ودواءٌ! فما زِيدَ عليه كان داء!» وعلى أنه لكلِّ امْرِئٍ من دَهْرِه ما تَعَوَّدَ.

وقال النبىُّ ﷺ: «أصْلُ كلِّ داءٍ البُرودة، وأصلُ كلِّ دواءٍ الحِمْية!» وقيلَ: «أقْلِلْ طعامًا، تَحمَد منامًا!» وقالت الحُكماءُ: «إنَّ الكثرة والقلَّة عَدُوَّا الطبيعة».

قد نَرَى فى الخَمْرِ ما، إذا اعتدل مزاجُه منه بالكثير، لم يجب أن يُقال له: «قَلِّلْ!» ولا من شارِبٍ وافَقَهُ القليلُ، أن يُقال له: «ازْدَدْ!» غيْرَ أنَّ العاقِل يَرَى ذلك بحسِّه، ويعلم ما لم يُوافِق طَبْعَه، فلا يزيد عليه شيئًا.

وسُئِل حكيمٌ عن الخَمْر، فأعابَها، إلاَّ أنَّه قال: «إذا أخذتَ كَيْفَ يَنْبَغِى ومع من يَنْبَغِى، فلا بأسَ بها: تفرح النفس، وتذهب بالهموم، وتشجِّع، وتحمل على الفضائل، والتزيُّدُ منها شرٌّ مثيرٌ، كما أنَّ التقليل منها خيرٌ كثيرٌ!»[1].

وشبهُّوا كثيرَها فى الأبدان مثل التُّرْمُوس الذى إذا أُكْثِرَ عليه الماء وطال مكْثُه، استحال وذهب نورُه.

---

(١) الخمر محرمة شرعًا على جميع الوجوه، وقد تغير أسلوب المؤلف نحوها فيما يلى بقوله: «لا خير فيما لا تبيحه الشريعة».

وقيل فيها:

سَألْت الشَّيْخَ بُقْراطًا
وبقْراطٌ له عَقْلُ
فَفضْلٌ ما لَهُ شِبْهٌ
وطِبٌّ ما لَهُ مِثْلُ
فقُلْتُ: الخمرُ تعجِبُنى!
فقال: كثيرها قَتْلُ!
فقُلْتُ: كَمْ تقدُّرُ لى!
فقالَ، وقَولُه فصْلُ:
وَجَدتُ من طبائع
أربعَةٌ هِىَ الأصْلُ
فأربعةٌ لأربعَةٍ
لكلّ طبيعةٍ رِطْلُ

هذا ما قالَهُ الناسُ، ولا خيرَ فيما لا تبيحُهُ الشريعةُ، ولا بأسَ بعِلمِ الشىء عند الحاجة إلى وضعِه، وبعضُ الشرِّ أهْوَنُ من بَعْضِه، لمن ابتلِىَ بها أن يأخُذَها على حقِّها.

وقالوا: إنه ممَّا يُولّد فرحَ النفس الشربُ بآنية الذهب وشمُّ النَّرْجِس، كما أنَّ الشربَ بآنية القَزْدِير وشمَّ البَنَفْسَج ممَّا يُولّد الحزْنَ.

وقالوا: إنَّها من أكبر أدوِيَة السَّوداءِ فى تلك الساعة، وتعقّبُ سَوْدَاءَ أشرَّ من الأولَى إن أكْثرَ منها، والعِلَّة فى ذلك أنَّه لا خيرَ فيها إلاَّ ما رقَّ منها، وحَالَ عليها الحَوْلُ، وعطرَت رائحتُه، وهى حارَّةٌ يابِسَةٌ، ثمَّ تستحِيلُ إلى

البرد عن شـرب الماء للضـرورة، وتَجِدُ الرطبـة منها، كَبِـديَّةَ اللَّون، غليظةَ الرَّونَق، مولدةً للدَّمِ والنَّوْمِ، وهى الموافـقةُ لزمان الشتاء، ولْيَتَّـخذْ منها لكلِّ زمان ما يوافقُ طَبِيعَتَه، ويخالف هَواهُ.

ورأوا أنَّ أخْذَها بعد الغَـدَاء بساعة، ليَنامَ الإنسانُ قَـبْلَها ويُرْوَى من الماء أنْجَعُ له وأنْفَعُ، وكذلك الجِماع أنْفَعُ أن يكون بَعْـدَ سكونِ الأعضاء وتودُّعِها بالنون بعد الطعام، فى صبـيحة تلك الليلة، عند تملى الأعضاء، واحتـياجِها إلى إخـراج الفضـول، ونشـاطِها، ولا يكون ذلك عن تـكلُّف، حتَّى تمـيلَ الطبيعةُ إليه، لا سيَّـما إن ساعَدَتْها النفسُ، ويوافق ذلك الشَّخْصُ هَوَاهَا، إذ النفسُ والجِسْم شكلان مُرْتَبطان: متى اعتلَّ أحدهُما، تَضعْضَعَ الآخَر، ومتى صَحَّا جمـيعًا، قَوِيَت المنّة وتكاملت الصحَّـة، ويكون ذلك أسرَعَ فى البَاه، كما أنَّ المَعدَةَ متى اشتهَتْ شيئًا، فقد ضمنَتْ هَضمَه.

قال جَالِيـنُوس: «إنَّ المريض الذى يشتهى أرْجَى مِنِّى للصـحيح الذى لا يشـتهى!» ألا تَرَى أن الطبـيب الماهر، إذا عـانى العليلَ، وقـاسَ بين دَوَائَيْن يكونُ نجعُـهما واحـداً، قَصَـدَ إلى الذى يعلم أنَّ النفسَ عليه أقْـبَلُ فى حال الصحَّة، فَـيَعمده، ألا تَرَى أنَّ شراب السَّـفَرْجَل وشراب السَّكَنْجَبِين فِـعْلُهما واحدٌ، غير أنَّ شراب السَّفَرْجَل ألْيَقُ بالنفس، وهى إليه أشْوَقُ، فيرى الحكيمُ تَوَقانَه إليه زائداً عليه فى الدواء[1]، وينجح فيه بالشهوة.

ولم يَرَوْا لشرب الخَمْـرِ عند العطش شيئًا أنْفَعَ من شَرْب المـاء، للتَّوَقانِ وإطْفاء الحرارة وقَمْع الأبْخِرة.

ولْيَستعْـمِل من الطعام ما خَفَّ، ولو عاوَدَهُ فى النهار مـرَّات، فهو أسرَعُ لهَضـمِهِ وأشْهَى لمَعْـدَتِه، وأخَفَّ على جَوَارِحِه، قـال بعضُ الحُكَماء: لأنْ

(١) فى المطبوع: «زائدا على فى الدواء» ولا وجه له.

أتملأ شرابًا أحَبُّ عليَّ من أن أتملأ طعامًا! فإن التُّخمَة، إن تعقّدَتْ، قَتلَتْ، وإن تحلَّلَتْ، أسقمَتْ» قال بعضُ الفلاسفة: «خفِّفوا هذه الأنفس من أوقار الشهوات، لتصعَدَ إلى عالَمها الأكبَرِ، فتأتيكم بعجائبِ ما هُنالكَ!».

وقالوا فى الشراب إنه يُسَلِّى الهموم، وأنا أقولُ: إنَّها تَهيِّجُ الهموم، إنما هو ما نزل عليه: إن ألفَتْ سُروراً، حرَّكَتْ منه ما سكن الإنسان عنه، وإن ألفَتْ هُمومًا، ذكرَتْ لما هو فيه وأشدَّ منه، وفتقَتْ إلى طُرُق السوء، والهَمُّ إنما يكون بما ينتظر الإنسان من سوء، فذاك الذى لا يُسْلِيه عنه شىءٌ، ولا يأتيه منه نعاسٌ، والغمُّ إنما يكون بما مَضَى، فربّما سَلت الخَمْرُ عن بعض ذلك، ولا شىء يولِّد النوم مثل الغمِّ بتذكارِ ما خَلَفَ، أو النَّظَرِ فى كتاب لا ينبغى منه تَعَلُّمًا أكْثرَ من مطالَعة ما مَضَى.

ومن الجُهَّالِ مَنْ يَعْتقِدُ أن العَشاء قريب المنام يُولِّد الرقادَ من أجْل التملِّئ، وأنا أقولُ: إنَّه يمنعه، فإن الحرارة تصعد إلى الدماغ من الأبْخِرة وكلُّ حارٍّ مانعٌ للنوم، كما أنَّ البرد فى الدماغ مُولِّدُهُ، ألا تَرَى أنَّ الأدمِغَة الباردة كثيرةُ النزلات من الرطوبات، وتولِّد النسيان؟ والسريعُ الحفظِ قد يكون فى دماغه مَرَارةٌ ويُبُوسةٌ؟ وقلَّ ما تَرَاهُ يَنْزِلُ، وإن كان فلا يدومُ ذلك به، فإنها من فَضَلات الدماغ، وكذلك الجاحظُ العَيْنَيْن يُعرض عن ذلك، وَقَلَّما يَسْلَم من الأمراض والتعرُّق، والغائرُ العَيْنَيْن عِنْدَهم أصَحُّ بَصراً مع أنَّها من صفات الجَمال إذا قالوا: «هو الغائرُ العَيْنَيْن، الأسيلُ الخَدَّيْن، المُشْرِفُ الحاجِبَيْن».

كذلك قَوْلى، وإنه لا يتمُّ لأحَدٍ جمالٌ إن خشنَتْ أطرافُه وامتَلأَتْ خَدَّاه، وكانت العَرَب تمدح فى الإنسان كِبَرَ رأسِه، وتقول: إنَّه عَلامةُ السُّؤدُد، ويَمْدَح الغُلامَ الأبْلَهَ العقُول.

وقيل: الجمال فى اللسان، ما كان ناطقًا بالصَّواب، ولا خيرَ فى التَّهوُّر والإكثارِ بما لا يحتاج، ووَصَفَ بعضُ الشعراء رجلا فيما رثى به، فقال:

لَقَدْ وَارَى المقابرُ مِنْ شَرِيكٍ
كَثِيرَ تَحلُّمٍ وقَلِيلَ عَابِ
صَمُوتًا فى المَجَالِس غَيْرَ عَىٍّ
جَدِيرًا حينَ يَنْطِقُ بالصَّوابِ

٨٩- رجع الكلام إلى التنجيم:

وممَّا وَصَفْناه من عِلْم التنجيم، احتَجَجْتُ يومًا بِبَعْضِ المنجِّمين أنَّهم على غير شىء، فقال: إن كُنْتَ نَقمتَ بَأنَّنا نزعم أنّ الكواكبَ فاعلَةٌ أو يَعْلَم أحَدٌ الغَيْب، فَمُحَال ذلك، لا يدَّعِيه أحَدٌ، غَيْر أنَّا نقولُ بأنَّها مُصرِّفَةٌ، ألستَ تقول فى الشمس: إنَّ الله خَلقَها ضِياء؟ فكذلك أقول فى النجم السعيد أو النحيس إنَّ الله خَلقه لذلك، ثمَّ لا يَعْلَم كَيْفِيَّة هذه السعادة وصورتَها غير الحَمَلة، والله أعْلَمُ بما يَتَهَيَّأُ منها.

«وليسَ منها شىءٌ إلاَّ مُوافِقٌ للشرائع إذ النَّصْبَةُ كلُّها مخلوقةٌ من مُدَبِّر واحِد، لا إله غَيْرَه، فمَتى كان فى العالم دَوْلَةٌ أو مِلَّةٌ، لم تدلَّ النجوم على غَيْرها، إذ الحُكْم مِنْ لَدُن الواحِد، فأوَّلُ ما نَبْتَدِئكَ به أنَّه ما من طالِع القِران مِلَّةٍ ومَوْلِد نبىٌّ إلاَّ وقد شاكَلَ، واتفقَتْ له من السعادة فى الهيئة ما خرج به من القوَّة إلى الفِعْل.

«وأُخْرَى، أليسَ تقولُ اليَهُودُ إنهم زُحَلِيُّون؟ لا شَكَّ فى ذلك! ألا تَرَى اتِّخاذَهم السَّبْتَ عِيدًا، وهو لزُحَل، وأخلاقَهم كلها مُطابقةً لِمَا يدلُّ عليه

زُحَلُ من البُخْل، والقَذَارة، والخُبث، والمكْر، والخَديعَة؟ ثُمَّ الرُّومُ من بَعْدِهم شَمْسِيُّون، لا امْتِراءَ فى ذلك! ألاَ تَرَى أنَّ يومَ الأحَد جُعِلَ لهم عِيدًا، وهو يومٌ شَمْسِيٌّ، وطبائعَهم موافقةٌ للشمس، وصُوَرُهم فيها: البَيَاض والحُمْرة والشُّقْرة، والرَّهْبانيَّة فى عُبَّادِهم لعقْم الشمس؟ ثُمَّ المسلمون: أَلَيْسَ هم زُهَرِيِّين؟ والزُّهَرة دالَّة على الدين، والنظافة، والمُروءة، والضوء، والطهر من الجنابة، وإباحة النكاح، والإماء، والطيب والزينة؟ ثم أُمِرْنا باتِّخاذ الجُمُعة عيدًا، وهو يوم الزُّهَرة!.

«ثُمَّ انْظُرْ إلى بُروج الفلك، تقولُ: إنَّ السابعَ بَيْتُ العُرْسِ، وأكْثَر ما يَسْتَعمِل الناسُ النِّكاحَ فى شهر رَجَب، وهو السابع من أشْهُر العام المؤرَّخ به، الذى أوَّلُه المُحَرَّم، والثامن من البروج بَيْت الموت والمواريثُ، وشهرُ شَعْبان الثامن من الأشهرُ الذى تُنْسَخ فيه الآجال، والتاسع من البُروج بَيْت الدين والسَّفَر، وشهرُ رَمضان المُعَظَّم، تاسعُ أشْهُر العام، وجب فيه الصوم ومُحَافَظَةُ الشَّرع، والعاشر بَيْت المُلْك والسُّلطان، واتُّخِذَ العاشِر من الأشهرُ عيدًا يَظْهرُ فيه بهاءُ الدين وعِزُّه.

«وقد قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج: ١) وأقْسَمَ ﴿بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ (التكوير: ١٥، ١٦) وهىَ المواكبُ السيَّارة، ويزعمونَ أنَّ زُحَل هو النجم الثاقب، لأنَّه يفتق بضوئه سبع سَمَوات، وأنَّه أعْظَم من الأرض ستة وتسعون مرَّة، وغَيْرُه من الكواكب قد وصفوا قسمتَها من العظم على الأرض، غير القمَر وعُطارِد، فإنَّهما[1] أصْغَر من الأرض، وأنَّ الشمس أعْظَمُ من الدُّنيا مائة وثمانون ضِعْفًا، ولكلِّ كَوْكبٍ منها مُدَّةٌ يقطع

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «فإنها».

فيها الفلكَ، ورُتْبةٌ هَيَّأها له بارِئُه ـ عزَّ وجلَّ ـ وإنَّ العالَمَ السُّفْلىَّ مُتَعَلِّقٌ بالعُلْوىِّ، مؤثِّرٌ به بإذْنِ ربِّه».

ومنهم من قال: لأىِّ شىء تُنْسَبُ إلينا الزَّنْدَقة؟ ولم نُنْكِر الخالق، وإنما تكلَّمنا فى المخلوقات، فيُوصَف كلُّ مخلوقٍ بما يُدْرِكه عِلْم الإنسان، كواصِف رَجُلٍ أو شَجَر أو جَبَل!».

وذُكِرَ عن حكيم أنَّه رُئِى بالمُصْحَف عن يمينه، والأسْطُرْلاب عن شماله، فسُئِلَ ما الذى أوجب جَمْعَهُما[1] لدَيْه، فقال: «أتلو فى المُصْحَف كلامَ الله، وأعْتَبِرُ فى الأسْطُرْلاب خَلْقَ الله، وعلم الهَيْئَة عِبادةٌ!».

وإنه لمَّا نُصَّ علىَّ هذه المقالة، كان جوابى عنها: «كلُّ ما تقول يشبه يكون من موافقة أهل السُّنَّة بما احْتَجَجْتُمْ به، غَيْر أنكم خَالَفْتم القرآنَ فى قولكم «يكون» و «لا يكون» والله يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥) فقالوا: «لَسْنا نقطع عن الأمر أنَّه يكون، ولا نقول إلاَّ أنَّه يدُلُّ، ونأتى بحُجَّةٍ إلاَّ يتمُّ شَرْحُها اللَّهُمَّ! إذ قُلْنا: هذا مَوْلِدٌ سعيدٌ، هل نقدر على شرح تلك السعادة والكائن فيها، ومِنَّا مَن يتحرَّى، فيعدل ولا يتكلم على شىء، وقَوْلُنا هذا كقَوْل من رأى سحَابًا ثقالاً فيقول: «هذه تدُلُّ على الماء الكثير» هَلْ قائلٌ ذلك مُلْحِدٌ؟ ثمَّ الله يفعل ما يشاءُ.

وهذا أيضًا ممَّا قدَّمْنا ذِكْرَه صَدْرَ الكتاب أنَّ كلَّ مفتون مُلَقَّنٌ حُجَّتَهُ، والله يقول: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (الكهف: ٥٤) على أنَّ الحقَّ عليه نورٌ لا يخفى، تقول العَرَب: «الحقُّ أبْلَج، والباطِل لَجْلَج» قال المأمون: «لا أغْتَبِطُ بأيَّام السرور مُذ عَلِمْتُ التنجيم، ولا استمريتُ الطعام مُذ عَلِمْتُ الطِّبَّ، ولا طابَ لى النوم مُذ عَلِمْتُ عبارة الرؤيا!».

---

(١) فى المطبوع: «جَمْعَها».

٩٠- مسائل فلكية:

ويزعمون أنَّ الليل ظِلُّ الأرض، ولا ضياء غير الشمس، فبإشراقها على الأرض عند طلوعها، كان النهار، وبدخولها تحت الأرض، رجع الظِّلُّ طالعًا، فأظْلَمَ الليل.

وبَعْضُهم من قرأ أن الشمس تجرى، لا مُسْتَقَرَّ لها، إذ يقولون: إنَّ الشمس لا تستَقِرُّ بمكان، إذ لا يصحُّ أن يكون المكان إلاَّ أعظم من الذى تَحِلُّ فيه، ولا أعظم من الشمس إلاَّ الفلك، والفلكُ دَوَّارٌ.

وقالوا فى الكسوف: إنَّ الكلام فيه ما يمكن إلاَّ بالوقوف على صورة الهَيْئَة، ولولا ذلك، لم يَجِد القول، وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف الذى حُدَّ أمْرُهُ وَقْتَ انْجلائِه ومَبْلَغِ المُنْكَسَف منه، وإن الشمس فى ذاتها لا يعرضها شىء غير أنَّ جرم القَمَر يحول بَيْنها وبَيْن الأرض متى قابَلَها، وكُسوف القمر من مُقابَلة الأرض.

وزعموا أنَّ ضوءَ الكواكب والقمر من الشمس، وأنَّها أجْرامٌ شَفَّافةٌ تكْتَسى النور من النَّيِّر الأعظم، فيبدو ضوؤُها بغَيْبِها، ويطمس عليها طلوعها، وهو قول الشاعر فى ذلك:

لأنَّكَ شَمْسٌ والمُلوكُ كَواكِبُ
إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

٩١- تحديد العلوم الطبيعية والطب:

وقال أهْلُ الطبيعة: إنَّ لا حَيَوان إلاَّ بالحرارة والرطوبة، أيْنَما كان الماءُ والشمس تولَّد فيه الحَيوان، وقد يكون من غير نسلٍ، ونَرَى حَيَوانًا يكون فى جوف صَخْرةٍ صَمَّاءَ مُلَمْلَمَةٍ، والله يخلق ما يشاءُ، قال تعالى:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة: ٦٠، ٦١) وذُكِرَ عن الحجَّاج أنَّهُ رئى فى المنام على حالة حسنة، فسُئِلَ عن ذلك، على ما كان من جوره، فقال: «رَحِمَنى رَبِّى بكَلِمةٍ قُلْتُها: مَرَرْتُ يومًا على زرعٍ، فقُلْتُ: لو شاء الله، لأنبتَهُ فى النار واليَفَاع!» (أى فى الصحارى التى لا ماءَ فيها) وقال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨).

ولم يبلغ الإنسان بعِلْمِه أكْثَرَ من معرفة الطبيعة: علاجُ ضعيف لا يرفع قدرًا أكثر من تقويم المزاج عند انحرافه، فعالجوا الأبدان بما أدركَتْهُ، عقولُهم، وجرَّبوه بأعمارهم، وتركوه سلفًا فى الأواخر، فكلٌّ يُعَانى على مقدار تَجْرِبَتِه. . .[1] ولا يوافِقُ القِراءَةَ حَظًّا حسنًا ومَعْرِفةً بهذا الشأن، فقد أخْطأ وتكلَّفَ، وقالوا: إنَّ الدواء المُسَهِّلَ للجسم بمنزلة الصابون للثوب: يُنقيِّه ويحلقه، فاستعمالُه فى زمان الخريف أوْلَى فى سُلطان السَّوْداء فيه، كما أنَّ استعمالَ الفَصْد فى زمان الربيع تخفيفٌ لا يحظى من أخرج فيه الدم، وإنَّ أشْبَهَ شىء الأغْذية بمزاج الإنسان: فالخُبْزُ النَّقِىُّ واللحم الثَّنِىُّ والشراب الحَوْلِىُّ، فمَن اقتصر على هذه دون تخليط لم يزل صحيحَ الجسم، قوىَّ البِنْيَة.

وقيل لجالينوس الحكيم، وكان فى زمان المسيح ـ عليه السلام: «إنَّ الله أرسل نبيًّا يبرئ الأكْمَه والأبْرَصَ!» فقال: «وأنا أُعالِجُ الأكْمَهَ والأبْرَص!» فلمَّا قيل: «يُحْيى الموتَى» لم يُصَدِّق ذلك حتى رآه مُعايَنةً حقًّا.

---

(١) بياض بالأصل.

٩٢- نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم:

وتُنكِرُ الحُكَماءُ ما يزعم الناسُ من رُؤية الجِنّ، وتُكَذِّب من يقول بسماع نُطْقِهم أو كلامهم على ألْسِنة البشر، وتقول: إنَّه لا يتكلَّم إلا من له لِسانٌ وآلة تُعينه، وإلاَّ، فكَيْف تنطق ريحٌ تهبُّ؟ إنما هو بِرْسامٌ يعرض فى دماغ مَن يَدَّعى ذلك، فيتصوَّر فى دماغه أمْرٌ ما يخيَّل له بفساده أنه يتكلَّم ويسمع، ما ليس منه شيء على حقيقةٍ، فيَهْذِى هذيانًا، ضَرْبًا من الروحانية التى يكون الإنسان، مُفكرًا فى بلدةٍ أو شَخْصٍ أو صورةٍ من الصُّوَر: إذا حَدَّثْتُهُ نَفْسُه بها، صار كالناظِر إليها، وإن سدَّ عَيْنَيْه، أو كالنائم يَرَى ما تُحَدِّثُهُ به نفسه، أو كالناظر فى المرآة يَرَى ما ليس بِمَوْجود، هذا لعمرى مَذْهَبٌ خُولفَ به طريقُ السُّنَّة، والله يقول: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ (النمل: ٣٩) وقَوْلُه: ﴿يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الاعراف: ٢٧) وهذا دَليلٌ على أنَّه لا يكون النطقُ إلاَّ بِلِسانٍ، ولا المرويَّة إلاَّ ببَصَرٍ ليس على خِلْقة الإنْس، كلٌّ على جِبِلَّةٍ، يَرَى ويسمع ويعقل.

ولولا ذلك لم تَدِنْ، ولا سبَّحَتْ، ولا اهتَدَتْ لِمَا يُسِّرَتْ له، إنَّ الطَّير التى هى عندنا لا تعقل وَصَفَها الله بمعرفَته، فقال: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (النور: ٤١) وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤) ووَصفَ بالسجودِ النجم والشجر والدوابَّ التى هى عندنا جَوَامِدُ، فكَيْفَ أحَدُ الثَّقَلَيْنِ اللَّذَيْن بُشِّرا بالثواب، وأنْذِرا بالعقاب، وخُوطِبَا بما خُوطِبَ به الإنْسُ، وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى﴾ (الانعام: ١٣٠).

فمن لا يؤمنُ بأنَّهم لا يتكلَّمون ويعقلون، فلا يؤمن بالملائكة، ويحتاج أن يكون قولُه هذا نسقًا فى كلِّ من ليس له لسانٌ وجَوارِحُ أنَّه لا يتكلَّم بجَوارِحِ الإنسان، فالملائكة لا توصَف بيَدٍ ولا لسان، وهُم المنْزَلون بالوَحْى على الأنبياء والمُخاطِبون لهم بالكُتُب والسُّنَّة: فلا يؤمن بالرسالة مَنْ يَتمَذْهَبُ بهذا.

٩٣- حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب:

وقالوا: إنَّ الجماع من أكبَرِ أدْوِيَةِ السَّوْداء لسرورِ تلك الساعة، ودُخول الحَمَّام، لما يعرض الإنسان من الانطراب فيه، مَنْ سرَّه أن تقرَّ عينُه حياتَه، فَلْيتمتَّعْ ما وَجَدَ سهولةَ شَهْوَتِه، ومَنِ اغْتَنَمَ ساعةَ لذَّتِه، فقد غَنِم[1]، ومن أخَّرَها، فقد عَدِمَ! فإن الإنسانَ ابنُ الآن!.

وقالوا فى الجلوس على المِيَاه والرِّيَاحِين ممّا يُسْلِى العاشق ويتداوى من أحزانه به.

وأمّا أنا، فأقولُ: إنَّ ذلك يزيد فى تَذْكارِه، ونقيم البُرْهانَ على ذلك أنَّ النفسَ لا تولع إلاَّ بما استَحْسَنَتْ، فكلُّ مُسْتَحْسَنٍ تَراهُ يُخْرِجُها إلى ذكر الأسْنى فى خاطِرِها، وكلُّ حَديث إنما يسوقه إليه، وكلُّ ما زيدَ تَذْكاراً زاد شوْقًا، فأعقبه سَهَرًا وقَلقًا، والشىءُ لا يُعَانَى إلا بضدِّه: فكيفَ يشغف بحسنٍ ويُسليه حُسْنٌ؟ بل يُوقظه ويشغله! ألا تَرَى أنَّ المكروبَ يتفَرَّج بالسُّرور، والسُّرورَ، يضمحلُّ بالكَدَرِ؟.

وليس لعاشق مُرَزَّإٍ بمالٍ ولا أهل، فيتسلَّى بما يُذهب غُمومَه، بل هو من شأنه فى لَذَّةٍ حلاوتُها مشوبَةٌ بحرارَةٍ: وهو حُكْمُ الحلو كلِّه فى المُذَاقَة،

(١) فى المطبوع: «عنم» بالعين المهملة.

لا يكون إلاَّ مائلاً إلى الحَرارَة؟ وكذلك فى المُشَـهَّيَات[١]: كلُّ مــا تَمَّتْ حَرَارَتُه، طابَ ريحُهُ.

وإذا قاس حالَ أزمِنته التى كانت تَسُـرُّه على ضروب من حالات الصبوة، لم يَجِدْ فيها مـدَّةً كانت عنده أفضَلَ، وأبْلَغَ فى السرور، وأهَشَّ للنفس وألْيَق بالحِسِّ وأذكَى للقلب، وأصفَى مشربًـا، وأهْـنَـأ طَعْمًا، من تلك المُدَّة، وإنْ كان فيـها بعضُ جَوًى، فإنَّه «لا بُدَّ بعد الشُّـهْدِ من إبَرِ النَّحْلِ» ودواؤُهُ، ما لا يَرْضاهُ، ولا يختاره بدلاً مما هو فـيه، إن يَشْغَلْه من ذلك خَطْبٌ كبيرٌ، ينسى به ما كان عليه، والذى هو بسبيله عنده أولَى.

٩٤- تأملات نظرية وأمثلة:

يضربها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا:

والصَّبْوة تُحْدِث للإنـسان هَيَجانًا وهُمُومًا: كالمُـهْتَمِّ بالنظر فى ماله، أو المُشْغَّب بِمُـحاولَةِ ما يُصْلِحُه، فليس كلُّ شـغب ضارًا، بل يؤلم منه مُكابَدة الأعداء ومقاساة طَلَب العـيش، الذى، إن فتر عنه شَقِيَ، لا طَلَب الزيادة فى الرزْق، فإن ذلك يَسْعَى كالبَطِرِ الذى هو بالخيار فى الكدِّ والراحة.

والنفسُ تَوَّاقَةٌ متى سَمعَتْ إلى مَرْتَبَـة، تاقَتْ إلى ما فوقها، فالعاقِلُ يَرَى أنَّ كُلَّ كَدٍّ وطَلَبٍ دون السَّـعْى فى طَلَبِ ما لا بُدَّ منه من قِـوام العيش فَـخْرٌ وأشَرٌ ورَغْـبةٌ وحِرْصٌ، ولـذلك هو الإنسانُ عن كلِّ شىء مَـسْئُولٌ، إلاَّ عن ثلاثة: طعامٌ يسدُّ جوعَه، وثوبٌ يسـتر عورَته، وبَيْتٌ يكنُّه من الشمس، ولو أنَّ له الدُّنيا أجْمَع، لـم يكن له منها زائدًا إلاَّ حظُّ العَيْن الذى يستـوى به فيه مع غَيْره من الناظرين، فـسلم من تبعاته[٢]، وتورَّط هو فى حِـسابه وأوزاره،

---

(١) فى المطبوع: «المُشْتَهات».

(٢) فى المطبوع: «تعباته».

وما كان إلى انقطاع ونفـاد، فحقيقٌ على اللبيب أن يزهد فـيه، لو آلَتْ حالُه إلى السلامة بعد ذهابه، لا عَلَيْـه ولا لَهُ، فكيفَ، وهو قد أيْقَنَ بالفَناء وبَعْدَه الحـسابُ والجَنَّةُ أو النارُ؟ وقـال المَسـيح ـ عليـه السلام ـ: «الدُّنْيَـا قَنْطَرَةٌ: فاعْبُروها ولا تَعْمُروها!».

وعلى أنَّه لا يُوجَد أحَدٌ يزهد فى حالٍ كلَّ الزهادة، حتَّى يبلغ منه أمَله أو بَعْضه، فـإن الزهادة الطبيعيَّـة إنما تكون فيما تَكْرَهُ النفـسُ، ولا بُدَّ من مَيْلِها إلى ما فيه أدنَى سُرورٍ، والله يقول فى الإنسان، لعِلْمِه به: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العـاديات: ٧) فكأنَّ الشىء، إذا أُدْرِكَ، انصـرفت عنه النفسُ لبُلوغ نَهْمتِها، ومتى تمنَّع عليها، كانت به أشَدَّ كَلَفًا.

ولقـد بَلَوْتُ من نفـسى بَعْضَ ذلك، إذ الطبعُ البَـشَرىُّ واحِـدٌ، لا يكاد يَخْتَـلف إلاَّ فى الأقَلِّ، ولذلك أُمِرَ الإنسـانُ أن يحبَّ لأبناءِ جنسه مـا يحبُّ لنفسه، حَضًّا[1] على العَدْل والإنصاف.

وأجدُنى فى كثرة المال، بَعْـدَ تَمَلُّكى عليه مع ذهابه، أزْهَدَ مِنِّى فيه قَبْل اكْتِسَابِه، مع شُفُوف الحـال إذ ذاك على ما هى عليه الآن، وكذلك شأنى كلُّه فى كلِّ مـا أدركْتُهُ قَـبْلُ من الأمْرِ والنَّهْـى، واكتسـابِ الذخائر، والتـأنُّقِ فى المَطاعِمِ والملابس والمراكب والمبانى، ومـا شاكلَ من الأحوال الرفيعة التى نشأنا عليها، حتَّى إنه لم يَبْقَ من ذلك ما تَتمَنَّاهُ النفسُ، وما لا تظنُّه، إلاَّ وقد بَلَغْنا منه الغايـة، وتجاوَزْنا فيه النهـاية، ولم يكن عند الحصـول عليه ينقطع ويذهب وشيكًا، فتطول عليه الحسـرةُ، ويُعَدُّ من جملة الأحلام! بل، تمادَى برهةً من عشْرين عامًا، وما كان قَبْلَهُ يكاد أن يؤارِيه، إذ ربَّيْنَا فى حِجْرِه.

ووَجَدْتُنِى، بعد فَقْـد هذا كلِّه، على الوَلَدِ أحْرَصَ مِنِّى على ما سِواهُ من

(١) فى المطبوع: «حظا».

كلٌ ما وَصَفْنا، لعُدْمه ذلك الوقت، وقلتُ في نفسي: «الغايةُ التي إليها يَسْعَى الناسُ من أمْـر دُنْياهـم، قد أدركناها، وشُـهِرْنـا بها في الآفـاق، ولا بُدَّ من فَقْدها، باكِرًا كان أو مُؤخرًا، بحياةٍ أو موت! فنحسب هذه العشرين عامًا هي مائة عامٍ، إذا تمَّت، سواء، وكأن لم تغنَ بالأمس! ونَحْنُ الآنَ جُدراءُ بالنظر فيما نَبْتَغِيه، ولله أن يَقْضِيَ ما شاءَ!».

وقِيلَ لرَجُل حَرَّاث: «هلْ زرعتُمْ؟» فـقال: حرثنا، والله الزارعُ!» وكذلك ذُكِرَ أنَّه لم يَـبْقَ من المُتَوَكلِّـين على الله غَيْر الـمُزارِعين، فـإنَّهم يدفنون في الأرض أقواتَهم ويطلبون فَضْلَ الله وبركَتَه.

٩٥- يتحدث المؤلف عن أولاده:

وكان تدبيرُنا هذا إلهـامًا لينفذ القَدَر، بكَوْنِ مَنْ نشأ من الولَدِ، لم يتـبعَّد وقته، ولا كان في غير مكانه.

(وذكر الفَـلاَسِفـةُ أنَّ الوَحْيَ يتجـزَّأ على ثلاث: كلامٌ، وإلْهـامٌ، ومَنَامٌ، وهو قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ (النحل: ٦٨) وقيلَ في قوله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (القصص: ٨) إنَّما كان وَحْيَ إلْهَامٍ، وكان النبيُّ ـ ﷺ ـ يقـول في بعض أقسامه: «لا! ومُقَلِّبِ الـقلوبِ!» فإنَّها بين يدي الرحمن يُقَلِّبُها كيف شاء لينَفِّذَ فيه أحكامَه وتجري عليها أقدارُه).

فما بَقِيَ لنا من الآمال غَيْر مالٍ حَلالٍ للمعاش، يغني عن السؤال، وعَمَلٍ صالحٍ للمَعاد، يُنجي من العقابِ ويوجب الثواب.

وقد كان سُـقْرَاط الحكيم يكْرَه الوطأ مدَّة عُـمُره، يَعْتَقِدُ بذلـك أنَّه مُهْرِمٌ للجسم ومُسْرِعٌ إلى الفناء، فقد قيل: إنَّ فـاعِلَ ذلك مُقْتَبِسٌ من حَياتِهِ، فمن

شاءَ، فَلْيُقَلِّلْ، ومن شاءَ فَلْيُكْثِرْ! ولهذا أرجح الجاحظُ فى «كتاب الحَيَوان» بَأنَّ الخصىَّ إنَّما طال عُمُره من أنَّه لا يُجامِع.

وأمَّا أنا فأقول[1]: إنَّ تلك الساعة التى يستحيل فيها عن الإنسانيَّة بقطْعِه إلى [الحيوانية][2] أشَدُّ استِفْراغًا، وأذْهَبُ لجَوْهَريَّته، وأقطع لعُروقِه من أن لو جامَعَ كلَّ يوم فى عُمُره عشر مَرَّات، لأنَّ المُجامِعَ مُخْرِجٌ للفضول، وهذا خُرِّج منه الجَوْهَرُ، وفُرِّغَتْ عروقُه، ولُيِّنَتْ لحمُه، وأُضْعِفَتْ عُصُبُه، وأرْخَتْ جِلْدَتُهُ.

ولمّا كَبِرَ سِنَّ سُقْراط، وعَلِمَ أنَّه ليسَ بعد الكِبَر إلاَّ الموت، جَامَعَ مَرَّةً من عُمُرِه، آخِرَ زمانِه، وتأوَّلَ فى ذلك إتمامًا لحكمة البارئ ـ عزَّ وجلَّ ـ وقال: «لم تكن حِكمةُ النسل إلاَّ بهذا الفعل، وإنْ أنا مُتُّ تارِكًا له أصلاً، كُنْتُ كالساخِط أو المُعنِّت لِمَا رتَّبَه الرَّبُّ، وعَسَى بذلك نستوجب عقابَه!» ثمَّ قال، إذا حضره الموت: «ما أظُنُّ عيبًا علىَّ إلاَّ مُجامَعة تلك الساعة!».

وكان من نِعْمة الله علىَّ إن رزَقنى بِكْرَ أولادى ابنة، لم يَزَل قَبيلُنا كلُّه يتبرَّك بها، ويكْرَه أن يكون بِكْرُهُ ابنًا ذَكَرًا، وقد رأينا فى سَيْف الدوله أبينا ـ رحمه الله ـ أن لم تتمَّ له فرحتُه بذلك، على أنَّ هذا ليس على العموم، وإنَّما ذَكَرْناه للتفاؤُل، إذ قال نَبيُّنا ـ ﷺ ـ: «تَفَاءَلُوا ولا تَطَيَّروا!» فَنَحْنُ قد تَفَاءَلْنا، لا سيَّما بما شهر عند أهالينا وقالوهُ قديمًا، ولو كان ضِدَّهُ، ما ذَكَرْناهُ، للنهى عنه.

ثمَّ رزَقنا بعد هذا ابنَيْنِ، لم نُبَشِّرْ بالاثنين، كى لا يجتمع علينا حزنُ ذلك مع ما نَحْنُ فى سبيله، لُطْفًا من الوهَّاب وإنعامًا وإحسانًا، فتَعْدادُ نِعَمِ الله

(١) فى المطبوع: «أقول».

(٢) مكان ما بين الحاصرتين بياض بالأصل.

شُكْرٌ لها، والإعلانُ عى وَجْه الشكر والتقَـوى، لا على الفَخْرِ والخُيَلاء، من أوْجَبِ ما يأخذ به الإنسانُ نَفْسَه، قال النبىُّ ـ ﷺ : «أنَا سيِّدُ وَلَدِ آدم، ولا فَخْر، وأنَا أفْصَحُ العَرَبِ، ولا فَخْر!».

٩٦- توجه المؤلف الحديث إلى قرائه ـ راضين عنه أو ساخطين عليه:

ثمَّ انصرف وَجْهُ اهتبالنا إلى وَضْع هذا الكتاب، وهو لَعَمرى بمنزلة الابْنِ الذى يُبْقِى ذِكْرَ أبـيه فى العالَم، لنُبَـيِّن به عن أنْفُسنا مـا أشكل على الجاهِل من مقالة سوء [فى دَوْلَة] زَعَمَ الحاسدون أنَّ منها كان سقوطُنا، ولن نعدم مع هذا بَرَكَتَـها لِمَا نرجـوه من ثوابنا، وحَسناته لبُـعْدِنا منها ونَـزَاهتنا عنها، وإنَّمـا وَضَعْنا هذا الكتـاب لمن أشكل عليـه الأمْرُ من أهل الفـضل والحقِّ، المُحبِّين لله فينا، الوادِّين الخَيْرَ لنا، ولا يزيد البُغاة إلاَّ طغيانًا وتَعْنيتًا.

فنردُّ على أهْلِ الإنصاف وذوى الألـباب: «إنَّكم أنْتُم المخَـاطَبُون من الله ورسوله! فَعَلَيْكم اعـتمادُنا، وإيَّاكم خاطَبْنا، ولكُم ما تـكلَّفْنا! فلا عَمِىَ بكم عن المعرفة تحيُّدُكم عن المِنْهـاج، ولا شَنَآن لِتَرَة سَلَفَتْ تُحرِّفكم إلى نفثات الحاقدين! والله يجعلنا فى الجنَّة إخوانًا، كما جَعَلَنا على الخَيْر أعوانًا!».

ونَرُدُّ على من اعْتَرَضَ جَـهْلاً أو حِقْدًا: «اخسـأ بِجَهْلِك، ومُتْ بِغَيْظِك! فلَيْسَت الأقدارُ جاريةً على اختيارك، ولا أنت المُخاطَب! بل تأْخُذ بأدَبِ الله تعـالى لنبـيِّـه ـ ﷺ ـ فى قـوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الاعـراف: ١٩٩) وهل تنقمك، أيُّها الطاعِن لنا، أن ورثْنا مُلْكًا عن آباء كِرام، يَوْمٌ منه خَيْرٌ من عُمُرك كلِّه؟ إذ قالت العُلَمَاءُ إنَّه من عاش ذا فَضْلٍ على نفسه وأصحـابه، فهو، وإن قَصُرَ عُمُرُهُ، طويـلُ العُمُر، مع أنَّه كان فى

طاعةٍ لم تُوصَف مقدمًا، بحمد الله، بجورٍ ولا طغيان، ولا سَفَكْنا دمًا، ولا غَصَبْنا مالاً، وكانت مُدَّتُنا فيه نحو من عشرين عامًا خَيْرًا من سِنِينَ، إذ لَيْلة القَدْر خَيْر من ألف شهرٍ، وتمامُ المدد على قديم الدَّهْر عادةٌ لا تُستغرَب لنا خاصَّةً، ولا بُدَّ من الفراق! فلله الحمدُ إذ لم نفقدها بفَقْد عقولنا ولا أدياننا، ولا تمَّتْ بنفادِ أعمارِنا: فَيومٌ من عُمُرِ الإنسانِ يذكر الله فيه خَيْرٌ من تَمامِ عَمَله، ومَيْتَةٌ على بلاء وتذكارٍ خَيْرٌ من مَيْتةٍ على فِتْنةٍ غَفْلَةً.

٩٧- يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء. حياته الخاصة

ثمَّ أضرَبْتُ عن وَصْف كلِّ جميلٍ فَعَلْناهُ، وحَزْمٍ استَشْعَرْناهُ، وخِدْمةٍ للدولة تكلَّفْناها.

وطَلَبْتُ بُنَيَّات الطريق، وتَتَبَّعْتُ ما لا عارَ فيه على الملِك، ولا نَقْصانَ في المَمْلَكة، من راحةٍ تُخْتَلَسُ عند الفراغ من الشغل كي تعقب نَشَاطًا، وعَمَّا دُفِعْنا إليه تَسْلِيَةً، فقد قالت الحكماءُ: «تَرْكُ اللذَّات يُعْقِب البَرَدَة، ويؤثر في الجِلْد أدواءَ مُنْكَرَةً، وقيل: إذا لم يكن للمرء على البقاء مَقْدُرَة، فَلْيتمتَّع، فإن تَرْكَ ذلك للنفوس.

فهَجَّنْتَنا بِلَفْظك، وأخرَجْتَها من حيِّز الهَزْل إلى الجدِّ، وكُنْتَ كَجَارِ سُبَّبَة: إن رأى حسنةً، كتَمَها، وإن رأى سيِّئة، أذاعَها، فطَفَّفْتَ وأربَيْتَ إن افْتَرَيْتَ، وما أذَعْتَ هذا، وأنت تَعْلَم أنَّه لم أكُن مخلوعَ العذار، ولا أخلدتُ إلى راحة توجب الغفلة، كالذى صَنَعَ من كان قَبْلَنا من الملوك، وتَعَفَّفْنا عن الدماء والأموال والحُرَم!.

ولم يَبْقَ لك ما تقول: «إنَّما كان صاحِبُ غَرْناطة حريصًا على جَمْعِ

المال، مُحِبًا فى الحِسان، يُنادِم الصبيان!» [وإذًا] لم تُحْسِن الرويَّة، ولا ظَنَنْتُه فكرًا.

أَلَسْتَ تعلَم، أيُّها الجاهل، أنَّ الملِكَ لا ينتَفِع من المال إلاَّ بما كان أوقارًا؟ وهَل استوجب الملِكُ إلاَّ بذلك؟ وكَيْفَ لا يحرص على صيانة عِزِّه والعُدَّةِ على عدوِّه؟ ما أنْساكَ لو عَلِمْتَ أنَّه مَنَعَ من حقٍّ أو أعْطَى فى غَيْرِ ما يجب؟ فقُلْ مَتَى ضاع مَعْقِلٌ، أو رفض جُنْدًا، ودخلَتْ داخلةٌ من التقتير أو المنع؟ أو مَتَى شكا رجلٌ من المسلمين أنه أخَذَ مالاً بغَيْرِ حق؟ لم تستَطِعْ على تزوير ذلك! فالأغْلَبُ يعلم صِحَّته، وأكْثِرْ من قَوْلك متى خرج من عنده شاعِرٌ بصلَةِ جَزْلةٍ، أو متى خرج [مادِحٌ] بكسوةٍ سَنِيَّةٍ: أمْرٌ لا يحتاجُ فيه إلى اعتذار، إذ العَمَل به من الأدبار.

وأمَّا مُنادَمة الصبيان، فإذ لم يكن بُدٌّ من استعمال شىء من الخَمْر، التى قد تاب الله علينا منها، فما للعُقار والرِّيَار؟ ليس هذا مَجْلِسَ حُكْمٍ: فيُتَخَيَّرَ له ذَوو الأسنان، ولا وُضِعَ لتدبيرِ رأى، فيُشاوَرَ فيه أهْلُ العِلْم، ولا مَيْدانَ حَرْب، فيُدْعَى إليه أنجادُ الفُرسان! ولكُلِّ وقتٍ حِكَمٌ: من استعمل فيه غَيْرَ شاكِلَتِه، فقد جَهَلَ، ولم نكُنْ مع هذا نأخُذُ معهم فى جِدٍّ، ولا نُمكِّنُهم من أمْرٍ، ولا نُنْهضُهم إلى غَيْرِ طريقَتِهم؟.

والمُستعملون لخدْمة الدولة مَشْهُورُون، ممَّن له حنكة ودربة: والخديمُ لا يكون نَديمًا: كَيْفَ تَصُول اليَوْم على من اطَّلَعَ على عَوْراتك البارحة، إذ السُّكر عورةٌ؟ أم كَيْفَ تأمُرُ بِخدْمة الجُنْدية والشدَّة عليه فى الخروج مَنْ تَعاطَى معك الكأسَ، وكَثَّر معك المزاح والعَرْبَدة؟ ثمَّ تطلبُه لخِدمَتِك، فتَجِدُه عَشُولاً عمَّا يصلحك مَشْغُولاً.

وبغَيْـرِ هذا كلِّه، فإن الدُّوَلَ الكـبارَ لم يَزَلْ فيـها الغِلْمـانُ وأبناءُ الصنائع صغاراً وكِبـاراً، عَبِيداً وأحْراراً، وهُمْ بين يدى الرئيس جَمَـالٌ، وعلى خِدْمَته أعْوانٌ، ويتصرَّفَ الصغيرُ السنِّ فيما لا ينبغى للمُسِنِّ أن يتولاهُ، ولِكُلٍّ دَرَجَتُهُ ورُتْبَتُهُ، وهَل المُلْكُ والمالُ إلاَّ للتزَيُّنِ والتـجمُّل به، وانتخابُ الحِسان منهم تليقُ بهم الكسـوةُ السنيَّـة والمراكِبُ الفـارهة؟ وأخُوكَ من وَاتَاكَ، إذ يتـعبَّـد بمالكَ من شئتَ يتعبَّد [خِدْمَتك من] حُرٌّ أو مَمْلوك، وإنَّ ابْنَ الإنسان، إذا لم يَصْلُح له. . .[1] إن يَقُلْ هذراً، أىَّ عَمَلٍ وَلَّيْناهُ على بلدة، أو صرَّفْنا إليه حُكْمَ رَعِـيَّة؟ إلاَّ مـا وَصَـفْناه، لا أدرى غَـيْره وإلاَّ. . . فـتكون مُـجْرِحًـا، ولإشارَتكَ عاضداً، أو تكون قاذفًا مُسْتَوْجِبًا!.

جَعَلَنا الله وإيَّاكَ عن الشرِّ مُعْرِضين، وبطاعته عامِلين! إنه أكْرَمُ الأكْرَمِين! لا رَبَّ غَيْرَه، ولا إلهَ حَقٌّ حاشاهُ!.

كمل الكتاب، والحمدُ لله، وصلَّى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

الملحق الأول

منتخبات عن «كتاب البيان المغرب»[1]
لابن عذارى المراكشى
عن دولة الأمير عبد الله بن بلكين بن زيرى

(١) فى هامش المطبوع: عن مخطوط مكتبة جامع القرويين بفاس (رقم ١٨٥٥) لم ينشر نصه إلى الآن.

(١)

وفى سنة ٤٦٥، كانت وفاة باديس بن حَبُوس على قول المُرَادى، والأكثرون على أنَّ وفاته كانت ٤٦٩، هكذا ذكر ابن القطَّان فى «نَظْم الجُمَان».

ذكر بيعة حفيد باديس بن حبوس

هو عبد الله بن بُلُكِّين الهالك بتدبير اليهودى المتقدم ذكره، وتسمَّى بالمُظفُر بالله، الناصر لدين الله، وكان غلامًا لم يبلغ الحلم، فاتَّفق على مبايعته وَزَراءُ جدِّه ووجوه صِنْهاجة، وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعرف بسِمَاجة، فاستقلَّ بحاله ورياسته، وكان لباديس وَلَدٌ خلف من البنين، وكان قد أعطاه فى حياته مدينة جَيَّان، فكان ينهمك فى شرب من الخمر، ويحدِّث أحداثًا قبيحة من القتل، وكانت له كلبة سمَّاها لُبُّونَة، فمن أحدث له حادثًا أو استوجب عقوبةً، أمر به، فرُمِىَ إلى الكلبة، فأكَلَتْه، فتفرَّق الناسُ عنه وكرهوه، واتَّفقوا على تقديم عبد الله بن بُلكين المذكور فقام بأمره سِمَاجةُ خير قيام.

وطمع ابن عَبَّاد فى رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس، فحشد من كان عنده، واستكثر من الجند، وقدم إلى إغرَناطة، فبرز عليها، وبنى بقربها حِصنًا على ستَّة فراسخ منها، وملأه بالرُّماة والرَّجالة، وترك الخيل فيه مع قائده، وأمرهم بالضرب على إغرَناطة وجِهَاتها، فكان ذلك.

ثُمَّ لم يزل سِمَاجة يخدم الصبىَّ إلى أن بلغ مبلغ الرجال، فأراد الانفراد

بحاله، فنفى عن نفسه سِمَاجة، فلحق بالمَرِيَّة بمال كثير وحالة جسيمة، ولم يزل بها إلى أن هلك، وبقى عبد الله بن بلكين بغرناطة، وسيأتى خبرُه فى دولة المُرَابِطين إن شاء الله تعالى.

(٢)

وفى سنة ٤٨٢، طرد عبدُ الله بن بُلُكين من غرناطة مُقاتِلَ بن عَطِيَّة البرزالى[1]، وكان فارِسَ الإسلام، وهو مع إخوته فى ثلاثمائة فارس، فكان ذلك ابتداءَ نحوس عبد الله بن بلكين.

وفيها، قام مُؤَمَّل، مَولى بَادِيس بن حَبُوس، فى قَصَبَة لَوْشة، على حفيد مولاه بدعوة لَمْتُونة، فأخذه عبدُ الله وسجنه.

. . . . . .

فأوَّل من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين صاحبُ إغرناطة عبدُ الله ابن بُلُكِّين، كما ذَكَرْنا، فنظر فى اختزان الأقوات، وألْحَقَ الرُّماة والرجال، وأعلى الأبراج، وبنى الأسوار، ووصَّل بعضها ببعض، وأقام عليها الدَّيْدَبَانات، ونصب الرعَّادات، وملأ بيوت السلاح، وجدَّ فى ضرب السِّهام، وبذل فى ذلك جهده، وإذا نفدت هذه، لم تغْن العُدَّة، ونقل المال والذخيرة، وخرَّج المتاع والآنية إلى قصبة المُنَكَّب لكَوْنها فى غاية المنعة وعلى ضفَّة البحر، ولم يستأصل ذلك لكثرته، وهدم حصونًا، وتوهَّم عليه القيام منها، ومن مأمَنِه يؤتى الحذر.

وعمد على مال كثير، وثياب نفيسة، وتُحَف جليلة، وأعلاق رفيعة، فوجَّه بها إلى الإذفونش، وكتب إليه متطارحًا عليه، مستجيرًا به، وأعلمه أنَّ

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الزناتى».

البلد بلدُه، وأنه فيه فائدة، فاهتزَّ لذلك إذفونش، وقبل المال والهدايا، وأقسم بجميع أيمانه ومعتقد ملَّته أن يشدَّ اليد عليه فى ملكه، ولا يتركه لضَيْم ولا هضيمة، وأن ينهض إليه بنفسه ويبذل جدَّه فى نصره، وراجَعَه بمثل ذلك من قوله، فقويت نفسُ حفيد باديس بذلك.

وفى ذلك يقول السَّمْسَارِىُّ:

صاحِبُ غَرْناطة سَفِيهٌ
وأعْلَمُ الناس بالأُمور
صانَع إذْ فُونْشُ والنصارَى
فانْظُرْ إلى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خلافًا
لطاعة الله والأمير
يبنى على نفسه سفاهًا
كأنّه دودة الحرير
دَعْوهُ يبنى فسَوْفَ يدرِى
إذا أتت قدرة القدير

واتَّصلت أبناؤُه بأمير المسلمين على حقيقتها، فاشتدَّ غضبُه، واستزاد جزعه.

وكان أبو جعفر القُلَيْعِىُّ من أهل إغرناطة فريد عصره فى الخير والعلم والتلاوة، والمُشار إليه...

الملحق الثانى

منتخبات عن كتاب:

«الإحاطة فى تاريخ غرناطة»

للسان الدين ابن الخطيب السلمانى

(١)

ترجمة عبد الله بن بلكين[١]

عبد الله بن بُلُكِّين بن بَادِيس بن حَبُّوس بن ماكْسَن بن زِيرى بن مَنَاد الصِّنهاجىُّ أمير غرناطة.

أوَّلِيَّتُه: قد مرَّ ذلك فى اسم جدِّه ما فيه كفاية.

حاله: لَقَبُه المُظفَّر بالله، الناصر لدين الله، ولى بعد جدِّه الحاجب المظفَّر بالله فى شوَّال سنة ٤٦٥ وصحبه سِمَاجة الصِّنهاجىُّ تسع سنين.

قال الغافقىُّ: وكان قد حاز حظًا وافرًا من البلاغة والمعرفة، شاعِرًا جيِّدَ الشعر، مطبوعَه، حسنَ الخط، كانت بغرناطة ربعة مُصْحَف بخطِّه فى نهاية الصنعة والإتقان.

ووصفَهُ ابنُ الصَّيْرفىّ، فقال: كان جبانًا، مغمد السيف، قلقًا، لا يثبت على الظهر، عِزْهاةً، لا أَرَبَ له فى النساء، هيَّابةً، مفرط الجزع، يخلد إلى الراحات، ويستوزر الأغمار.

خلعه: قال: وفى عام ٤٨٣، تحرَّك أمير المسلمين يوسف بن تاشُفِين لخلع رؤساء الأندلس، فأجاز البحر ويمَّم قُرْطُبة، وتواترت الأنباء على حفيد باديس صاحب غرناطة بما يغيظه ويحقده، حسبما تقدَّم فى اسم مُؤَمَّل مَوْلَى باديس وقدَّم إلى غرناطة أربع محلاَّت، فنزلت بمقربة منها، ولم تمتدَّ يدٌ إلى شىء بوَجْه، فسرَّ الناسُ واستبشروا، وأمنت البادية، وتسايَلَ أهلُ الحاضرة

---

(١) الإحاطة ٣/ ٣٧٩.

إلى القُـرَى، وأسرع حفـيدُ باديس فى الـمال، وألحقَ السـوقة والحـاكّة[١]، واستكثر من اللفيف، وألحَّ بالكتْب على إذْفُونْشُ بما يطمعه.

وتحقَّق يوسفُ بن تاشُفِين استشراف الحـضرة إلى مَقْدَمه، فتحرَّك، وفى ليلة الأحد لثلاثِ عشرة خَلَتْ من رجب، اجـتمع إلى حفيد باديس صَنَائعُه، فخوفوه من عاقبة التربُّص، وحملوه على الخروج إليه، فركب، وركبت أُمُّه، وخرجا، وتَرَكـا القصر على حاله، ولقى أمـير المسلمين على فـرسخَيْن من المدينة، فترجَّل وسأله العفو، فعَفَا عنه ووقف عليه، وأمره بالركوب، فركب وأقبل حتى نزل بالمشايخ[٢] من خارج الحضرة، واضطربت المحلات، وأمر مُؤمَّلاً بثقاف القصر، فتولَّى ذلك.

وخرج الجمُّ من أهل المدينة، فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشُفِين، فقبلهم وأنَّسهم وسكَّن جانبَهم، فاطمـأنُّوا، وسهَّل مؤمَّلٌ إليه دخول الأعيان، فأمر بكَتْب الصكـوك ورفع أنواع القَبَالات والخَرَاج، إلا زكاة العـين وصَدقة الماشـية وعـشر الزرع، واستـقصى ما كـان بالقصـر، فظهر على مـا يحول الناظر، ويروع الخـاطر، من الأعلاق والذخـيرة والحلى، ونفيـس الجَوْهَر، وأحجـار الياقوت، وقـصب الزمرُّد، وآنيـة الذهب والفضة، وأطـباق البِلَّوْر المحكم، والجُرْجانيَّات، والعِراقيَّـات، والثياب الرفيعة، والأنماط، والكلَل، والستـائر، وأوطئة الديبـاج، ممَّا كـان فى ادِّخار باديس واكـتسـابه، وأقبلَتْ دوابُّ الظهر من المُنكَّب بأحمـال السبيك والمسبوك، واخـتلفت أُمُّ عبد الله

(١) الحاكة: أعنى السفلة وأهل الشر، ومفردها (الحاك).

(٢) فى المطبوع «بالمـشيخـة» والمثبت من الإحـاطة ٣/ ٣٨٠، وبهامشـها: «هو، كمـا يبدو من ضواحى غرناطة الإسلامية يصعب اليوم تحديد موقعه.

لاستخراج ما أُودِعَ ببطن الأرض، حتى لم يَبْق إلا الخرثى والثقل والسقط، وزَّع ذلك الأمير على قوَّاده، ولم يستأثر منه بشيء.

قال: ورغب إليه مؤمل في دخول القصر، فركب إليه، وكثُر استحسانه إيَّاه، وأمر بحفظه وتفقُّد أوضاعه وأفْنِيَته.

ونُقِلَ عبدُ الله إلى مَراكش، وسنُّه يومَ خُلِعَ خمس وثلاثون سنة وسبعة أشهر، فاستقرَّ بها هو وأخوه تَميم، وحُلَّ اعتقالُهما، ورُفِّهَ عنهما، وأجروا المُرتَّب والمُساهمة عليهما، وأحسن عبد الله أداءَ الطاعة، مع لين الكلمة، فقُضِيَتْ مآربُه، وأُسْعِفَتْ رغباته، وخفَّ عَلَى الدولة، فاستراح واستُرِيح معه، ورُزِق الوَلَدَ في الخمول، فعاشَ له ابنان، وبِنْتٌ جمع لهم المال، فلما توفِّي ترك لهم مالا جمّا.

مولده: وُلد عبد الله سنة ٤٤٧.

(٢)

ترجمة مقاتل بن عطية[1]

مُقاتِل بن عطيَّة البِرْزالىُّ، يكنى أبا حَرْب، قال فيه أبو القاسم الغافقىُّ: من أهل غرناطة، ويُلَقَّب بذى الوزارتَيْن، ويعرَّف بالرِّيِّه لحمرةٍ كانت فى وجهه.

حالُه: كان من الفرسان الشجعان، لا يصطلى نباره، وكان معه من قومه نحو من ثلاثمائة فارس من بنى بِرْزَال، وولاَّهُ الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس مدينة اليُسَّانة، والتقى به ابن عبَّاد وأخذ بمخنقها، وكان عبد الله

(١) الإحاطة ٣/ ٢٩٩.

يحرزه، وعندما تحقَّق حـركة اللمتونيِّين إليه، صرفه عن جـهته، فقل لذلك قاصرُه، وأسرع ذهاب أمره:

شجاعـتُه: قال: وحضر مُقاتل مع عبـد الله بن بلكين أمير غرناطة وقيعة النيبَل فى صـدر سنة ٤٧٨، فأبلى فيـها بلاءً عظيمًـا، وجرح وجهُـه وخرق درعُه بالطعن والضرب، وذكـر من حضرها ونجا منها، قـال: كنتُ قد سقط الرمح من يدى ولم أشعـر، وحملت الترس ولم أعـلم به، وحملنى الله إلى طريق منجاة، فركبتُها مـرة أقَعُ ومرةً أقوم، فأدركتُ فارسًا على فرس أدهم، ورمحه على عاتقه، ودرقتُه على فخذه، ودرعُه مهتكةٌ بالطعن، وبه جرحٌ فى وجهه يثعب دمًا تحت مِغْفَره، وهو مع ذلك ينهض على رسله، فرجعتُ إلى نفسى، فوجدتُ ثقلاً، فتذكَّرتُ الترس، فـأخرجتُ حمالته عن عاتقى وألقيتُه عنِّى، فوجدتُ خـفةً وعُدْتُ إلى العدوِّ، فصاح ذلك الفـارس: خُذِ الترس!» قلتُ: «لا حاجة لى به!» فقال: «خُذْهُ!» فتركتـه ووليتُ مسرعًا، فهمز فرسه ووضع سنانَ رمحه بين كتـفَىّ وقال: «خُذ الترس، وإلاَّ أخرجتُـه بين كتفيْك فى صدرك!» فرأيتُ الموت الذى فَرَرْتُ منه، ورجعت إلى الترس، فأخذتُه، وأنا أدعو عليه، وأسـرعتُ عدوًا، فقال لى: «على مـا كنت فليكن عدوَّك!» فاستـعذتُ وقلتُ: «ما بعـثه الله إلاَّ لهلاكى!» وإذا قطعة من خـيل الروم قد بصرت به، فوقع فى نفسه أنه يسرع الجَـرْى فيسلم وأُقْتَل، فلما ضاق الطلق ما بينه وبين أقربهم منه، عطف عليه كالعقاب وطعنه ووطره، وتخلَّص الرمح منه، ثمَّ حمل على آخر، فطعنه ومال على الثـالث، فانهزم منه، فرجع إلى، وقد هبتُ من فعله، ورشـاش دم الجرح يتطاير من قِناع المِغْفر لشـدة نفسه، وقال لى: «يا فاعل! يا صانع! أتلقى الرمح، ومعك مُقاتِلُ الرِّيَّة؟».

(٣)

ترجمة مؤمل[١]

مُؤَمَّل، مولى باديس بن حَبُوس.

حالُه ومِحْنَتُه: قال ابن الصَّيْرَفى وقد ذكر عبدَ الله بن بُلُكِّين حفيدَ باديس، واستشارته فى أمره لما بلغه حركة يوسف بن تاشفين إلى خَلْعه: وكان فى الجملة من أحبابه رجلٌ من عبيد جدِّه اسمهُ مُؤَمَّل، وله سنٌّ، وعنده دهاءٌ وفطنةٌ ورأىٌ ونظرٌ.

قال فى موضع آخر: ولم يكن فى وزراء مملكته وأَحْبار[٢] دولته أصيلُ الرأى جَزْلُ الكلمة إلا ابنَ أبى خَيْثَمة من كتبته، ومؤَمَّل من عبيد جدِّه، وجعفر من فِتْيانه.

رجع، قال: فألطف به مؤمَّل فى القول، وأعلمه برفق وحُسْنِ أدب أنَّ ذلك غير صواب، وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين، إذا قَرُبَ، والتطارُح عليه، فإنَّه لا يمكنه مدافعته ولا يطاق حربه، والاستِجداء[٣] له أحمد عاقبة وأيمنُ مغبَّة، وتابعه على ذلك نُظَراؤُه من أهل السنِّ والحنكة، ودافع فى صدر رأيه الغلمة الأغمار، فاستشاط غيظًا على مؤمل ومن نحا نحوه، وهمَّ بهم، فخرجوا، وقد سلّ[٤] بهم فرقًا منه، فلما جنَّهم الليلُ، فرُّوا إلى لَوْشة، وبها من أبناءِ عبيد باديس قائدُها، فملكوها وثاروا فيها بدعوة أمير المسلمين يوسُف بن تاشفُين.

---

(١) الإحاطة ٣/ ٣٣١.
(٢) فى المطبوع: «وأحِبّاء» والمثبت من الإحاطة التى ينقل منها.

(٣) فى المطبوع: «والاستخذاء» والمثبت من الإحاطة.

(٤) تحرف فى المطبوع إلى: «وقد سبل» وصوابه من الإحاطة.

وبادر مؤَمَّل بخطاب يوسف المذكور، وقد كان سفر إليه عن سلطانه، فأعجبه عقلاً ونبلاً، فاهتزَّ إليه، وكان أقوى الأسباب على حركته، وبادر حفيد باديس لأمره، فأشخص الجيش لنظره صهره، فتغلَّب عليهم، وسيق مؤَمَّل ومن كان معه شرَّ سوق فى الحديد، قد أُركبوا على دواب هجن، وكُشفت رؤُوسهم، وأردف وراءَ كلُّ رجل من يصفعه، وتقدَّم الأمر فى نصب الجذوع وإحضار الرماة، وتلطفَ جعفر فى أمرهم وقال للأمير عبد الله: «إن قتلتَهم الآن، أطفأتَ غضبك وأذهبتَ مالك! فاستخرج المال، وأنت من وراء الانتقام!» فثقَّفهم، وأطمعوا فى أنفسهم ريثما شغله الهول، وأنفذ يوسف بن تاشفين فى حلِّ اعتقالهم، فلم تسَعْهُ مخالفته فأطلقهم، ولما ملك غرناطة على تَفْيِئة[1] تلك الحال، قدَّم مؤمَّلا على مُسْتَخْلَصه[2]، وجعل بيده مفاتيح قصره، فنال ما شاء من مال وحظوة، واقتنى ما أراد من صامت وذخيرة، ونُسبت إليه بغرناطة آثار، منها السُّقاية بباب الفخَّارين، والحَوْز المعروف بحَوْز مُؤمَّل[3]، أدركتُها، وهى بحالها.

وفاتُه: قال ابن الصَّيْرَفى: وفى ربيع الأوَّل من هذا العام، وهو عام ٤٩٢، توفِّى بغرناطة مؤَمَّل، مَولَى باديس بن حَبُوس، عبدُ أمير المسلمين وجابى مُسْتَخْلَصه، وكان له دهاءٌ وصبرٌ، ولم يكن بقارئ ولا كاتب، رزقَه الله عند أمير المسلمين أيَّامَ حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعةً، ولما أشرف على المنيَّة، أحضر ما كان عنده من مال المُستَخْلَص، وأشهد الحاضرين

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «تفثيه» وصوابه من الإحاطة.

(٢) المستخلص هنا يقصد به الأملاك والأموال الأميرية (الإحاطة ٣/ ٣٣٣) حاشية١).

(٣) حوز مؤمل: اسم مكان بغرناطة الإسلامية كان يقع فى جنوب غربى الحمراء ويشتهر برياضه ومتنزهاته (الإحاطة ٣/ ٣٣٣ حاشية ٢) وتحرفت العبارة فى المطبوع إلى: «والحور المعروفة بحور مؤمل».

على دفعه إلى من استوثقه على حمله، ثمَّ أبرأ جميعَ عُمَّاله وكُتَّابه، وأنفذ رجلاً من صنائعه إلى أمير المسلمين بجملة من مال نفسه، يُريه أنَّ ذلك جميع ما اكتسبه فى دولته أيَّام خدمته، وأنَّ بيت المال أولى به، ورغب فى ستر أهله وولَده، فلما وصل ذلك إليه، أظهر الأسف عليه، وأمضى تقديم صنيعته.

ثمَّ ذكر ما كشف البحث عنه من محتجنه، وشقاء مَنْ خَلْفه بسببه، وعدَّد مالاً وذخيرةً.

١- فهـــرس الأعـــلام

(أ)

أبو إبراهيم اليهودى (ابن نغرالة): ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٣، ٥٤.

ولد أبى إبراهيم اليهودى: ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٧٠، ٧٢، ٧٥، ٧٦، ٨٠، ٨٤، ١١٣، ١٦٦، ٢٤١.

ابن الأحسن السجلماسى: ١٣٠، ٢٠٦.

ابن الأحمر: ١٧٧.

أبو الأحوص بن صمادح (صاحب المرية): ٦١، ٦٢.

أختا عبد الله المؤلف: ١٧٢، ١٧٥.

الإذفونش: ٢٤٣، وانظر «ألفونش».

ابن أرقم ٦٩.

ابن الأصبحى: ١٢٢.

ابن أضحى الكاتب: ٨١، ٨٢.

ابن الأفطس = المتوكل

إفلاطون: ٢١، ٢٢.

ألبرهانش: ١٥٣، ١٥٤.

ألفونش السادس: ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٩، ١١٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٨.

(ب)

باديس بن حبوس المظفر (جد عبد الله): ٢٤، ٢٦، ٤٢، ٤٣، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٩٣، ١٠٥، ٢٤١، ٢٥١، ٢٥٢

باديس بن المنصور (أمير إفريقية): ٣٩.

باديس بن واروى: ١٧٨.

باطر (بطره): شولش: ٩١، ٩٦.

ابن البراء: ١٦٩.

بزلف (والى السوس): ١٩٦.

بقراط: ٢٢١.

ابن بكر: ٢٤.

أبو بكر بن مسكن: ١٤٨.

بلبار الصنهاجى: ١١٢.

بلكين بن باديس سيف الدولة (والد عبد الله المؤلف): ٢٦، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩.

بلكين بن حبوس: ٤٣، ٥٠.

بلكين بن زاوى بن زيرى: ٣٩.

(ت)
ابن تاقنوت: ١٢١، ١٢٢
تميم بن بلكين بن باديس المعز (أخو عبد الله المؤلف): ٦٦، ١١٥، ١٩٤، ١٩٥.
(ج)
الجاحظ: ٢٣٤.
جالينوس: ٢٢٢، ٢٢٨.
جعفر الخصى: ١٨٤، ٢٥١.
ابن أبى جوش: ١١١.
(ح)
حبوس بن ماكسن (أمير غرناطة): ٣١، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٧، ٤٩، ٥١.
الحجاج: ٢٢٨.
ابن الحديدى: ٩٩.
ابن الحسن النباهى (قاضى مالقة): ٨٢.
(خ)
ابن الخياط المنجم: ١٠٠.
ابن أبى خيثمة: ١٩١، ٢٥١.
(د)
داود بن عائشة: ١٣١.
(ذ)
ابن ذى النون: ٧٤، ٨٠، ٨٥، ٩٢، ٩٨، ٩٩.
(ر)
الراضى (ابن المعتمد بن عباد): ١٣١، ١٤٠، ٢٠٥.
أبو الربيع بن الماطونى: ٦٥، ١٦٣.
أبو الربيع النصرانى: ٨٦، ٨٧.
الرشيد (هارون): ٢٢٠.
الرشيد (ابن المعتمد بن عباد): ١٠٣.
ابن رشيق: ١٠٢، ١٠٣، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩.
الرومى أبو النصرانى = ألفونش السادس.
الريه (لقب مقاتل بن عطية البرزالى): ٢٤٩، ٢٥٠.
ابن الريوله: ١٠١.
(ز)
زاوى بن زيرى: ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧
زاوى الصنهاجى: ١١٢.
زهير (صاحب المرية): ٥١.
ابن الزيتونى القروى: ١٩١.
(س)
سراج الدولة: ١٠٤.
ابن سعدون: ١٨٣، ١٨٨.
ابن السقاء: ٦٢.
سقراط: ٢١، ٢٣٣، ٢٣٤.
ابن سلمون: ١٤٧.

سماجة الصنهاجي: ٩٨، ١٠٩، ١١١، ١١٣، ١٢٠، ١٢١، ٢١٥، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٩.
السمسارى: ٢٤٣.
ابن سهل (القاضى): ١٤٦، ١٤٩، ١٧٨.
السيد لذريق: ٢٠٩.
سير (الأمير المرابطى): ١٩٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨.
سيف الدولة = بلكين بن باديس والد عبد الله.

(ش)

شِشْلانْدُ: ٩٥.

(ص)

الصحراوى (أبو بكر عم يوسف بن تاشفين): ٢٠٦.
ابن صمادح = أبو الأحوص والمعتصم صاحبا ألمرية.
أبو الصمصام: ٢٠٦.
ابن الصيرفى: ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٢.

(ع)

ابن عباد (المعتضد بن عباد): ٦٠، ٦٣، ٧٦.
ابن عباد = المعتمد.
عباد ابن المعتمد: ٩٣.
العباس بن المتوكل بن الأفطس: ٢٠٨، ٢٠٩.
أبو العباس الحكيم: ١٦٥.
أبو العباس (كاتب حبوس): ٤٢.
ولد أبى العباس: ٤٧.
ولد عباس (كاتب زهير): ٥١، ٥٢.
عبد الله بن القروى: ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٧٧، ٧٨.
عبد الملك (القاضى): ١٣٠.
أم العلو (بنت عم ماكسن): ٨٦.
على بن أبى طالب: ٢١٩.
على بن القروى: ٤٩، ٥٣، ٥٥، ٥٦.
ابن عمار: ٩٧، ٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٢١.
عمر بن عبد العزيز: ٢٤.

(غ)

الغافقى (أبو القاسم): ٢٤٧.

(ف)

فرقان: ٤٩
الفضل بن المتوكل بن الأفطس: ٢٠٨، ٢٠٩.

(ق)

القادر (حفيد ابن ذى النون): ٩٩، ١٠٣، ١٨٦.
ولد القاضى (صاحب باغه): ٨٢، ٨٣، ٨٤.
قرور: ١٣٨، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٥.

ابن القطان: ٢٤١.
ابن القليعى، أبو جعفر: ١٣٧، ١٣٩، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٨، ٢٤٣.
(ك)
كباب بن تميت: ٩٧، ١١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٥.
(ل)
لبيب الخصى: ١٦٧، ١٦٩، ١٨٤.
لذة الخادم: ١٩١.
ابن أبى لولا: ١٦٤.
(م)
ابن ما شاء الله: ١٨١
ماكسن بن باديس بن حبوس: ٥٧، ٥٩، ٦٤، ٦٦، ٧٣، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٩٧، ١١٩.
المأمون بن المعتمد: ٢٠٤.
المتوكل بن الأفطس: ١٣٢، ١٣٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠.
مجاهد (صاحب دانية): ٦١، ٦٢.
ولد مجاهد: ٨١، ١٠٠.
مخلوف بن ملول: ٧٦.
المرتضى: ٣٥، ٣٧، ٥٢.
ابن مرتين: ٩٣.
ابن المرة: ١٦٣، ١٦٥.
المستعين بن هود: ١٠٠.
مسكن بن حبوس المغرالى: ٧١، ٧٣، ٧٨، ٧٩.
المظفر (جد عبد الله): = باديس بن حبوس.
المعتصم بن صمادح (صاحب المرية): ٦٩، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٩٣، ١١٣، ١١٤، ١٢٢، ١٣٢، ١٤٠، ١٧٦.
المعتضد = ابن عباد.
المعتمد بن عباد: ٩٢، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١١٥، ١٢٠، ١٢١، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٦، ١٣٩، ١٤٠، ١٥٧، ١٥٨، ١٧٧، ١٧٨، ١٨١، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٤١، ٢٤٩.
معد بن يعلى: ١٧٢.
المعز بن باديس (أمير إفريقية): ٣٩، ٤٠، ٥٩.
المعز = تميم بن بلكين بن باديس.
معز الدولة بن المعتصم بن صمادح: ٢٠٢.
مقاتل بن عطية: ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٥٠.
مقاتل بن يحيى: ٦٣.
المقتدر بن هود: ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤.
ابن ملحان: ٩٣.

منذر بن هود: ١٠١.
المنصور بن أبى عامر: ٢٧، ٣١.
المنصور بن أبى عامر (صاحب شرق الأندلس): ٦١، ٦٢.
المنصور بن المتوكل بن الأفطس ٢٠٧، ٢٠٩.
المؤتمن بن هود: ١٠١.
موسى: ٢١.
موفق (صاحب المدينة): ٥٣.
مؤمّل ١٤٨، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦، ١٨١، ١٨٨، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢.
ابن ميمون (أمين يهود اليسانة): ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥.

(ن)

النابة: ٦٣، ٦٩، ٧١، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢.
نعمان: ١٧٠، ١٧٦، ١٨١.

(هـ)

ابن هود = المقتدر.

(و)

واصل العلج: ٨٣، ٨٦.
والدة المؤلف: ١١٩، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢.
ولد حجاج = يوسف بن حجاج.

(ى)

يحيى بن يفران: ٧١، ٧٦.
يدير بن حباسة بن ماكسن: ٤١، ٤٣، ٤٧، ٤٩، ٥٠.
ابن يعيش: ٨٢.
ابن يكون: ١٧٧.
يوسف بن تاشفين أمير المسلمين: ١٣٤، ١٣٦، ١٥٧، ١٧٨، ١٨١، ٢٠٦، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٢.
يوسف بن حجاج: ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٨١.

٢- فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات

الإفرنج: ٦١، ١٠٣.
البربر: ٣١، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٦١، ٧٩، ٨٣، ٨٦، ١١٨، ١٨٣.
بنو برزال: ٨٠، ٨٢.
بنو تاقنوت: ١٢٠، ١٢٣.
تلكاتة: ٧٦، ١١٢، ١٧٨.
بنو حمود: ٦٠.
الروم أو النصارى: ٩٢، ٩٥، ٩٨، ١٠٥، ١١٤، ١١٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٩، ١٥٩، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٧، ١٨٥، ٢٠٩، ٢٥٠.
زناتة: ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠.
بنو زيرى: ١٥٨.
صنهاجة: ٣٨، ٤٠، ٤٩، ٥٠، ٧١، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩، ٢٤١.
بنو عباد: ٦٣، ١٠٢، ١٩٩.
بنو اللوارنكى: ٩٩.
لمتونة: ٢٤٢.
المرابطون: ٦٢، ١٠٤، ١٠٩، ١٢٩، ١٤٧، ١٤٨، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٧١، ١٨٢، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢٤٢.
المغاربة: ٧٦، ٧٩، ٨٠، ١٥٠، ١٨٤.
بنو مغيث: ٩٩.
اليهود: ٧٩، ١٦٣، ١٦٥.

٣- فهرس الأعلام الجغرافية

أرجذونة (Archidona): ١١٧، ١٢٠.
إسطبة (Estepa): ٩٧
إشبيلية (Séille): ٩٧، ١١٥، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٥٩، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٩.
أشتنير: ١١٦.
حصن آشر (Iznajar): ٣٤.
إغرناطة = غرناطة
أساغمات: ٢٠٦.
إلبيرة (Elvira): ٣٣، ٣٥.
ألمـــرية: ٥١، ٥٢، ٦١، ٦٢، ٧٥، ٩٣، ١١٣، ١١٤، ١٥٣، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٤٢.
أنتقيرة (Antequera): ١٢٠.
أيرُش: ١١٧.
باب الفخارين (بغرناطة): ٢٥٢.
باب فتنالة (بمالقة): ١١٨.
باغه (Priego): ٦١، ٨٤.
بزليانة: ١١٦، ١١٧.
بسطة (Baza): ٩٣.
بطليـــوس (Badajoz): ١٣٢، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨.
بلنسية (Valence): ٩٩، ٢٠٧، ٢٠٩.
بليلش (Vrlillos): ٩٢، ٩٣، ٩٦.
بياسة (Baeza): ٨٠، ٨١، ١٢١.
تدلس (Dellys): ٢٠٣.
تدمير: ١٠٢.
الجبل (نظر): ١٤١.
جريشة: ١٢٢، ١٣٢.
الجزائر (Alger): ٢٠٣.
جزيرة الأندلس: ١٢٩، ١٣٥.
الجزيرة الخضراء (Algeciras): ١٣٠، ١٣١، ١٩٣.
جطرون (Jotrón): ١١٧، ١١٩.
جليقية (Galice): ٩٥.
جيـــان (Jaén): ٣٤، ٧٣، ٧٨، ٧٩، ٩٧، ١١٩، ٢٤١.
حمارش: ١١٩.
الحمراء (Alhambra): بغرناطة: ٧٢، ١٦٣.
الحمة (Alhama): ١١٦.
حوز مؤمل (بغرناطة): ٢٥٢.
دانية (Denia): ٦٢، ١٠٠، ١٠١.
الرملة (La Rambla): بغرناطة ٤٩.
رندة (Ronda): ٢٠٥.
ريه: ١١٦.
ريينة: ١١٧، ١١٩.
الزاوية (La zubia): ٣٦.
الزلاقة (Sagrajas): ١٢٩، ١٣٢.

سبتة (Ceuta): ١٣٠، ١٣١، ١٥٩، ١٧٨.
سرقسطة (Sarahosse): ١٠٣، ١٥٣.
السطح (عمل): ٣٦، ٤٩.
السوس: ١٩٥، ١٩٦.
شاط (Jete): ١١٥.
شربة: ١٤١.
شرق الأندلس: ٧٨، ١٠٣، ١٥٣.
شقورة (Sehura): ١٠٣، ١٠٤.
شلير (Sierra Navada): ٣٦.
شنت أقلج: ٩٣.
شنت مرية (Santa Maria): ١٠٣.
شنيلى (Genil): ٣٦.
شليش: ٩٣.
صالحة (Zalia): ١١٥.
الصحراء (Sahara): ١٩١.
صخرة حبيب: ١١٧.
صخرة دومس: ١١٦.
طرلبش: ١١٤.
طليطلة (Toléde): ٧٤، ٨٠، ٨٤، ٩٥، ٩٩، ١٠٣، ١٢٩،
العدوة (Maroc): ١٤٩، ١٥٠، ١٩٩.
الغربية: ١١٩.
غرناطة (Grenade): ٣٤، ٤٠، ٥١، ٦٠، ٦٣، ٧٠، ٧٢، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٤، ٩٢، ٩٤، ٩٧، ١٠٩، ١١٣، ١١٧، ١٣٥، ١٤١، ١٤٦، ١٥٣، ١٥٩، ١٧٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٤، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٣٦، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٢.
فحص غرناطة: ٩٢، ١٨٥.
فنيانة (Finana): ٧٧، ٧٨، ١١٣.
الفونت (Alfuente): ٥١.
قاشتره: ٩٧.
قامرة: ١١٩.
قبريرة: ٧٢.
قبرة (Cabra): ٦١، ٨٢، ٨٤.
قرطبة (Cordoue): ٦٠، ٦٢، ٩٢، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٨٦، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥.
قرطمة (Cartama): ١١٩.
قرمونة (Carmona): ٢٠٥.
القصر (حصن): ١١٦.
قلعة أسطلير (Alcala la Real): ٩٧.
قلعة حماد: ٢٠٢.
قولجر: ٤٩.
القيروان: ٣٩، ٤٠.
لرقة (Lorca): ٦١.
لوشة (Loja): ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦، ١٨٤، ٢٤٢.
ليط (Aledo): ١٠٤، ١٢٩، ١٣٦،

١٣٧، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٥، ١٧٧، ٢٠٠، ٢٠٨.
مارتش (Martos): ٩٧.
مالقة (Malaga): ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٧٦، ٨٢، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٣٠، ١٣٥، ١٤١، ١٧١، ١٩٤، ١٩٦.
المدينة: ٣٥.
مراكش: ١٣٠، ٢٠٦ (وانظر مروكش)
مرسية (Murcie): ٩٨، ١٠٢، ١٠٤، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٠، ١٧٧، ٢٤٩.
مروكش: ١٥٥، ١٩٤، ٢٠٦.
مرية بلش (Velez Malaga): ١١٦.
المشايخ: ٢٤٨.
المطمر: ٩٧.
مكناسة الزيتون: ١٤٦، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٤، ٢٠٦.
منت ماس: ١١٧.
المنتورى: ١١٣، ١١٤.
المنكب (Almunecars): ٦١، ٧١، ١١١، ١١٥، ١٥١، ١٩٢، ٢٤٢.
ميشش (Mijas): ١١٩.
النيبل (Nivar): ١٥٩، ٢٥٠.
نيمش: ١٢١.
وادى آش (Guadix): ٥٥، ٦١، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٨٢، ٨٣، ١١١، ١١٢، ١٤١، ١٥٣.
اليانة (Lucena): ١٦٣، ١٦٤، ١٧٧، ١٨١، ٢٤٩.

٤- فهـــــرس الموضوعات

الموضـــــــــوع	الصفحة
مقدمة هذه الطبعة	٥
مقدمة الطبعة الأولى	٧
الفصل الأول	
نظرات عامة للمؤلف	
١- القواعد التى يتعين للمؤلف اتباعها	١٥
٢- حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به.	١٧
٣- قصور القياس دون عون من الوحى	١٩
٤- ضرورة التعليم والتجربة	٢٣
٥- التكوين السياسى للمؤلف	٢٤
٦- صعوبة الإنصاف التأريخى	٢٦
٧- المصادفة وأثرها فى التأريخ، مثل المنصور	٢٧
الفصل الثانى	
الأحداث الممهدة لقيام دولة بنى زيرى وأوليات هذه الدولة، أيام زاوى بن زيرى وحبوس بن ماكسن	
٨- الإصلاح العسكرى الذى أدخله المنصور، قدوم بنى زيرى إلى الأندلس وقيام دول الطوائف	٣١
٩- استقرار بنى زيرى فى إلبيرة بناء على طلب أهلها	٣٣
١٠- رد الفعل الذى أحدثه فى الأندلس قيام دولة بنى زيرى اختطاط غرناطة	٣٤
١١- خروج المرتضى لحرب بنى زيرى وهزيمته	٣٧
١٢- رحيل زاوى بن زيرى إلى إفريقية وموته هناك مسمومًا	٣٨
١٣- إمارة حبوس بن ماكسن	٤٠
١٤- المؤامرات التى دبرت لإسناد الإمارة إلى يدير بن حباسة موت حبوس	٤١

الموضـــــــــــوع | الصفحة

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس (١) من أوليتها إلى موت ابن نغرالة

١٥- أولية إمارة باديس بن حبوس وتعاظم الوزير اليهودى أبى إبراهيم ٤٧

١٦- فشل المؤامرة التى دبرها يدير بن حباسة ضد باديس ٤٩

١٧- انتصار باديس على زهير صاحب المرية ٥١

١٨- شخصية الأمير بلكين سيف الدولة والد المؤلف ٥٢

١٩- نشاط يوسف بن نغرالة اليهودى ومؤامراته ٥٣

٢٠- موت الأمير بلكين مسمومًا ٥٦

٢١- ما بلغ ابن نغرالة من المكان الأرفع ٥٩

٢٢- استيلاء باديس على مالقة ٥٩

٢٣- علاقات باديس ببنى صمادح أصحاب المرية ٦١

٢٤- وصول الناية إلى غرناطة حظوته ومنافسته لليهودى ٦٣

٢٥- إجلاء الأمير ماكسن بن باديس ٦٤

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبوس (٢) من موت ابن نغرالة إلى نهايتها

٢٦- مؤامرة الوزير اليهودى ابن نغرالة، ثورة صنهاجة عليه وقتله ٦٩

٢٧- الحركة الموفقـة التى قام بها باديس لانتزاع وادى آش من أيدى ابن صمادح ٧٤

٢٨- الحركة الموفقة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة من يد ابن عباد ٧٦

٢٩- الكشف عن أمر فنيانة وقتنتها ٧٧

٣٠- استيلاء باديس على مدينة جيان ٧٩

٣١- استيلاء النابة على بياسة ٨٠

٣٢- مؤامرة ضد النابة ومقتله ٨٢

٣٣- استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة ٨٤

الموضـــــــوع | الصفحة

الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب (١) مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله ٩١

٣٤- رفض مطالب ألفونش السادس واشتراكه مع بن عمار ٩١

٣٥- المهادنة بين عبد الله وابن صمادح صاحب المرية ٩٣

٣٦- مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه ٩٣

٣٧- استيلاء ألفونش السادس على طليطلة ٩٨

٣٨- استيلاء ابن هود على دانية، بعض أخبار بنى هود ١٠٠

٣٩- ثورة ابن عمار على المعتمد بمرسية إلى أن أخرجه منها ابن رشيق، أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع ١٠٢

٤٠- عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب أشبيلية ١٠٤

٤١- المؤلف يتحدث عن منهجه فى كتابة مذكراته ١٠٥

الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢- عزل الوزير سماجة، ثم إجلاؤه واستقلال عبد الله فى الأمر ١٠٩

٤٣- النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية، تعاقب أحداثه وحله ١١٣

٤٤- توجيه عسكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة وأخى المؤلف، ونصره إياه ١١٥

٤٥- ذكر ثورة كباب بن تميت وثورة بنى تاقنوت ونهايتهما ١٢٠

الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس، مؤلف هذا الكتاب

(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاق ومحاصرة حصن لييط

الموضـــــــوع	الصفحة
٤٦- مقدمات تدخل المرابطين فى شؤون الأندلس	١٢٩
٤٧- إرسال سـفارات أندلسية إلى مـراكش، احتلال المـرابطين الجزيرة الخضراء	١٣٠
٤٨- تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد	١٣٢
٤٩- موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس	١٣٢
٥٠- يوسف بن تاشفين يعـقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المـعركة بدء الخلاف بين المتحالفين.	١٣٤
٥١- عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، حصار حصين لبيط	١٣٦
٥٢- محاصرة لبيط تصور فوضى ملوك الطوائف فى ذلك الحين	١٣٧
٥٣- النزاع بين ابن عباد وبين ابن رشيق	١٣٨
٥٤- رفع الحصار عن لبيط، تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم	١٤٠
الفصل الثامن	
إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس مؤلف هذا الكتاب	
(٤) سياسة عبد الله بعد عودته من لبيط، إجراءات دفاعية وسياسية	١٤٥
٥٥- تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيط مسلك قرور	١٤٥
٥٦- بعض المؤامرات وتخاذل القليعى	١٤٦
٥٧- سيرة الجند مع الأمير فى ذلك الحين تشييد الحصون	١٥٠
٥٨- معاقدة عبد الله مع ألبرهانش وكيل ألفونش السادس	١٥٣
٥٩- التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه	١٥٥
٦٠- تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله يبرر مسلكه	١٥٧
الفصل التاسع	
إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب	
(٥) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة	
٦١- ثورة يهود مدينة اليسانة	١٦٣

الموضـــــــوع	الصفحة
٦٢- قضية زناتة	١٦٥
٦٣- انقلاب مؤمل وثورته فى لوشة	١٦٨
٦٤- وصف الثائر نعمات وسيرته ضد عبد الله	١٧١
٦٥- مسألة زواج الأميرتين أختى عبد الله	١٧٢
٦٦- حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله	١٧٤
٦٧- رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختى المؤلف	١٧٥
٦٨- تدخل الأمير عبد الله فى مسألة مرسية وغضب المعتمد	١٧٧
٦٩- إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسبتة من قبل عبد الله وإيقاع الخوف فى نفسه بعد رجوعها	١٧٨
الفصل العاشر	
إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس مؤلف هذا الكتاب	
(٦) استسلامه السلطان المرابطى، سجنه، إخراجه من الأندلس ونفيه	
٧٠- عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبدء مقاتلته إياه	١٨١
٧١- وصول الجيش المرابطى قبالة غرناطة	١٨٢
٧٢- الحالة داخل حضرة غرناطة	١٨٣
٧٣- لا يجد عبد الله مخرجًا إلا بالتسليم	١٨٥
٧٤- تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله	١٨٧
٧٥- نفى الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى	١٩٣
٧٦- عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله ونفيه	١٩٤
الفصل الحادى عشر	
عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك	
٧٧- موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة	١٩٩
٧٨- حركات المرابطين على المرية	٢٠١
٧٩- توتر العلاقات بين الأمير المرابطى والمعتمد	٢٠٣
٨٠- الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفى ابن عباد.	٢٠٤

الموضــــــــــوع	الصفحة
٨١- قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكش	٢٠٦
٨٢- عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس ومهلكه	٢٠٦
٨٣- نشاط المرابطين ضد النصارى استيلاء «السيد» لذريق على بلنسية	٢٠٩
٨٤- تأملات فى تقلب الأقدار	٢١٠
الفصل الثانى عشر	
تأملات أخيرة بعد النفى	
٨٥- المؤلف والشعر	٢١٥
٨٦- استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره	٢١٥
٨٧- آراء المؤلف فى التنجيم	٢١٧
٨٨- آراء طبية فى الأغذية والنبيذ	٢١٩
٨٩- رجع الكلام عن التنجيم	٢٢٤
٩٠- مسائل فلكية	٢٢٧
٩١- تحديد العلوم الطبيعية والطب	٢٢٧
٩٢- نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم	٢٢٩
٩٣- حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب	٢٣٠
٩٤- تأملات نظرية وأمثلة يضربها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا	٢٣١
٩٥- يتحدث المؤلف عن أولاده	٢٣٣
٩٦- توجه المؤلف الحديث إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه	٢٣٥
٩٧- يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة	٢٣٦
الملحق الأول	
منتخبات من «كتاب البيان المغرب»	
لابن عذارى المراكشى عن دولة الأمير عبد الله	٢٤١

الموضـــــــوع	الصفحة
الملحق الثانى	
منتخبات عن «كتاب الإحاطة فى تاريخ غرناطة»	
للسان الدين ابن الخطيب	
١-ترجمة عبد الله بن بلكين	٢٤٧
٢- ترجمة مقاتل بن عطية	٢٤٩
٣- ترجمة مؤمل	٢٥١
فهارس الكتاب	
١- فهرس الأعلام	٢٥٥
٢- فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات	٢٦٠
٣- فهرس الأعلام الجغرافية	٢٦١
٤- فهرس الموضوعات	٢٦٥
٥- مراجع التحقيق	٢٧٢

٥- مراجع التحقيق

- الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، مكتبة الخانجى بالقاهرة ٢٠٠١م.
- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى، دار الثقافة - بيروت ١٩٩٨م.
- تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١م.
- الروض المعطار للحميرى، بيروت ١٩٨٤م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى، القاهرة ١٩٥٦م وما بعدها.
- سير أعلام النبلاء للذهبى، مؤسسة الرسالة ١٩٥٢م.
- صفة جزيرة الأندلس، للحميرى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧.
- قضاة الأندلس، المرقبة العليا، للنباهى، بيروت - بدون تاريخ.
- مجمع الأمثال، للميدانى، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٩٥٥م.
- معجم البلدان لياقوت، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٧٧م.
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م.

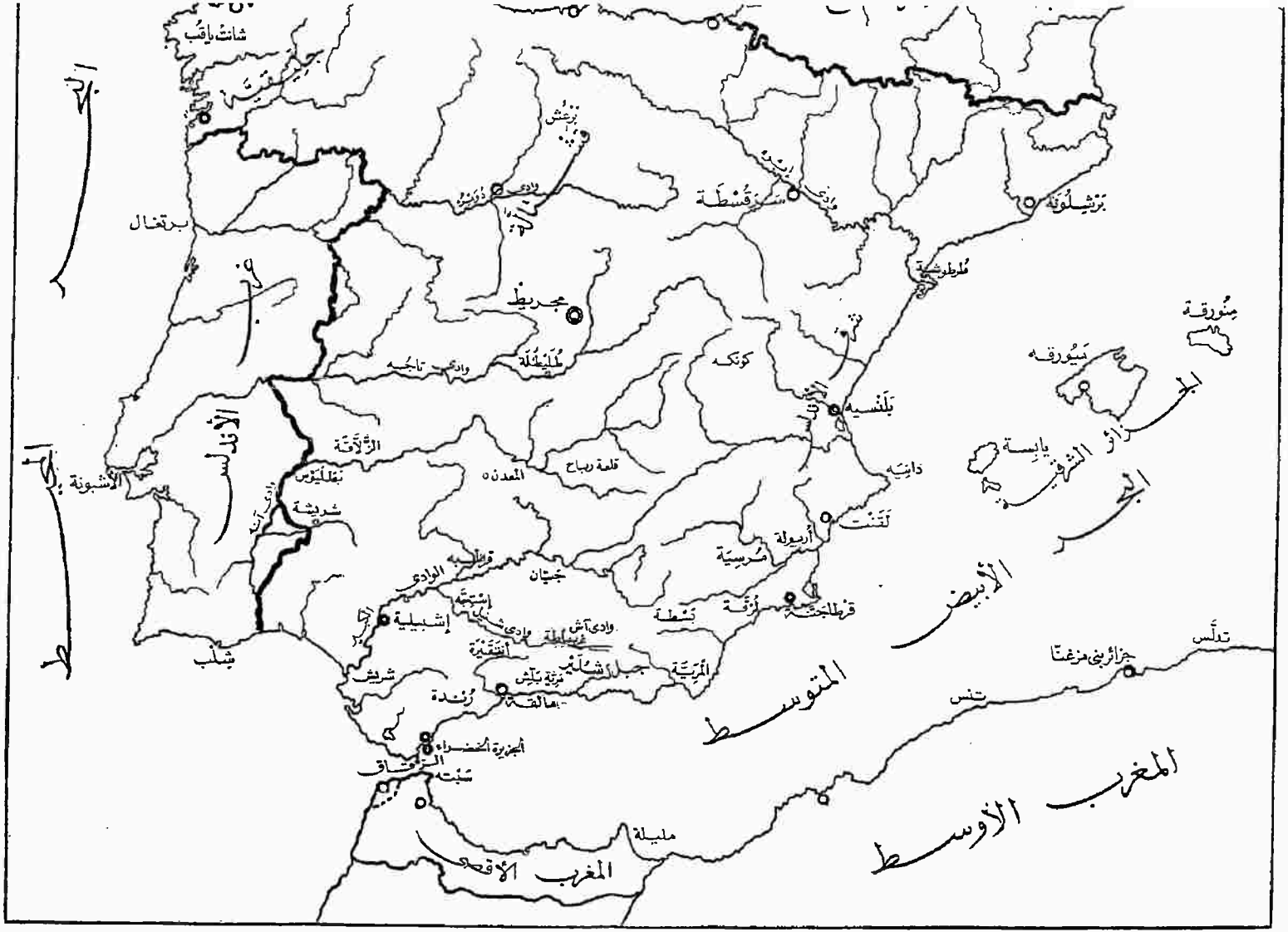

خريطة جزيرة الأندلس فى عهد ملوك الطوائف